راقصات مصر

جليل البنداري

الكتاب: راقصات مصر

الكاتب: جليل البنداري

الطبعة: ٢٠٢٠

صدرت الطبعة الأولى عام ١٩٥١

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ ـ ٣٥٨٦٧٥٧٦ ـ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

APA

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

البنداري ، جليل

راقصات مصر/ جليل البنداري

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٨٧ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولى: ٢ – ٣٩ – ٦٨١٨– ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٧٥٩٧ / ٢٠٢٠

راقصات مصر





شقيقه القبطية

الراهبة التي رقصت في باريس بحذاء من الذهب المرصع بالماس!

في صالة ألف ليلة وليلة التي كانت تديرها «الراهبة التي رقصت في باريس، بحذاء من الذهب المرصع بالماس».. الجو صاخب والمتفرجون سكارى، وصاحبة الصالة تمر بين الموائد، في خفة ملكات الجمال ورشاقتهن، تحييهم، وتوزع عليهم ابتساماتها بالعدل، وترد على نكاتهم بأسلوب مهذب، وفجأة تصدى لها أحد الزبائن – وكان في حالة سكر شديد – فمد ذراعه ليمنعها من المرور، وسألها في سخرية:

– بتحبي مين دلوقتي يا شفيقة؟

فقالت شفيقة بسرعة:

– بأحب الفلوس!

وهمت بالمشي... فاستوقفها ثانيًا وقال:

– قصدي... مين من الرجالة؟

– أغناهم!!

– وتحبيه على طول؟

– على قد فلوسه!

– وإن جيت لك بكرة ومعايا عشرة آلاف جنيه؟

– ورق...؟!

– لا... دهب!!

– أحبك!!

دار هذا الحوار بين صاحبة صالة ألف ليلة، وبين شاب يعمل صرافًا بإحدى الوزارات! إن هذا الصراف لعب دورًا قصيرًا في قصة «شفيقة القبطية»، ولكن الذين شهدوا فصول الرواية، قالوا إنه في اليوم الثاني حضر إليها ومعه حقيبة فيها عشرة آلاف جنيها من الذهب، فطردته «شفيقة» من غرفتها، لأنها كانت تعلم أنه اختلس هذه الثروة من خزانة الدولة!

في الساعة الثامنة صباحًا من كل يوم أحد، كان سكان شارع نخلة – القابع تحت أقدام كوبري شبرا – يتعجبون عندما يرون هذه الفتاة اللعوب، تلبس الملابس الشبيهة بزي الراهبات، وتعلق على صدرها صليبًا من البرونز، وتمشي في طريق مستقيم إلى كنيسة «سانت تريزا» لتصلي!

وقد كانت شفيقة على جمالها ورشاقتها، خفيفة الظل، سريعة البديهة، ترد على كل من يعاكسها في الطريق، إما بالنكتة أو بالشتيمة، أو بالشبشب! وفي أحد الأيام كانت شفيقة تعبر كوبري شبرا، ومرت أمام المقهى الذي يجلس فيه مفتشو و«كمسارية» السكة الحديد؛ فرآها أحد الكمسارية وجرى وراءها، ثم استوقفها وسألها سؤالًا واحدًا؛ فردت عليه بالإيجاب.

وعندما تزوجت لم تترك البيت الذي نشأت فيه، ورفضت الانتقال مع زوجها إلى بيت آخر، ولم تنقطع – حتى بعد الزواج – عن الذهاب إلى الكنيسة في الساعة الثامنة صباحًا من كل يوم أحد!

وفي عيد ميلادها، اصطحبها زوجها إلى حي الصاغة ليشتري لها هدية، فاختارت صليبًا من الفضة! وفي عيد زواجهما الأول، دعا زوجها لفيفا من زملائه الكمسارية، ورؤساءه مفتشي التذاكر بالسكة الحديد، وفي الحفلة قالت زوجة أحد زملائه أن شفيقة لا تقف بجوارها راقصة!، فطلب منها المدعوون أن ترقص، فاعتذرت في أول الأمر، ثم ألحوا عليها، وألحوا على زوجها فقامت ورقصت، ولم تجرؤ راقصة – من العوالم – على أن ترقص في تلك الليلة بعد شفيقة!

وعرض عليها أحد المفتشين، أن يلحقها بالمسرح، فوافقت ووافق زوجها، وبعد ستة أشهر كان اسم شفيقة القبطية، يملأ مسارح القاهرة ونواديها!

ولمع اسم شفيقة، والرقص والزواج لا يتفقان؛ فاختلفت مع زوجها كمساري السكة الحديد فقد أخذ يطالبها بالنقود، وهي تتبرم شيئًا فشيئًا، وبدأت تسعى للطلاق، ورفضت الكنيسة، وأخيرًا تم الاتفاق بينهما على أن تنزل له عن بيتها بشارع نخلة، ولم تكن شفيقة القبطية، تمتلك سوى هذا البيت، ومع ذلك فقد نزلت عنه، واشترت بيتًا في حي الذوات، حارة السقايين!

***

وأفتتحت مقهى لحسابها... وكان المقهى الذي ترقص فيه شفيقة ملتقى العظماء والكبراء وعمد زمان...

وعاد زوجها يطالبها بالنقود من جديد... وحاولت بشتى الطرق أن تقطع الصلة بينها وبينه، ولكنها لم تستطع... وأخيرًا تطوع أحد أصدقائها – وهو معلم عربات يملك ألف عربة كارو – تطوع لحراستها وحمايتها من زوجها!

وكان هذا المقهى أو المسرح يضاء بثلاث نجفات، في كل نجفة عشر شمعات، وكل شمعة ثمنها مائة جنيه... وكان الكبراء والعمد يتبارون في هدايا الشمع، ومنهم من أقسم بالطلاق ليسبقن غيره في إضاءة المسرح، فقدم لها شمعًا بثلاثة آلاف جنيه دفعة واحدة!

وفي هذه الصالة ألتقت بالصراف الذي أختلس من أجلها الآلاف العشرة من الجنيهات الذهبية... وطردته من غرفتها. وبعد خمس دقائق من خروجه... قبض عليه البوليس!

وعاشت شفيقة القبطية في مجد لم تصل إليه راقصة أخرى... فكانت الراقصة الأولى والأخيرة التي رقصت بحذاء من الذهب المرصع بالماس!.. وكانت تتحلى بطقم من المجوهرات ثمنه خمسة آلاف جنيه!.

وأحبها أحد الشعراء، ومدحها بأكثر من قصيدة، وكان ينشد فيها الشعر وهي ترقص في المقهى... وفي الليلة التي يحضر فيها الشاعر العاشق، كان المقهى يزدحم بالناس!

إن شفيقة القبطية أول سيدة – من بين أفراد الشعب – تمتلك عربتي حنطور، يقودهما سائق إيطالي... إحداهما عربة بيضاء للنهار تجرها خيول بيضاء... والأخرى سوداء لليل. ويتقدم كل عربة أثنان من العبيد بملابسهما المزركشة، يفسحان الطريق لموكب شفيقه القبطية، التي عاشت مهددة بشبح كمساري في السكة الحديد!

وكانت إذا أقامت حفلة زار في بيتها، شهدتها جميع سيدات وآنسات الطبقة الراقية... كما كانت الصالة تتلقى يوميًا عشرات الصناديق المليئة بزجاجات الشمبانيا... ولم يكن المقهى مقصورًا على المصريين... بل كان يغشاه الأجانب الذين أقترحوا عليها الاشتراك في

أول معرض أقيم في باريس – سنة ١٩١٧ – بإقامة «ديكور» صورة طبق الأصل من المقهى بالنجف والشمع وكل شيء... وقدمت شفيقة القبطية نفس التابلوهات التي كانت تقدمها في سهرات القاهرة... وفازت بالجائزة الأولى!

وعادت شفيقة من باريس، راقصة عالمية! وعرضت عليها عروض مغرية للقيام برحلة إلى تونس والجزائر وإسبانيا فرفضت، واختفى كمساري السكة الحديد من حياتها، وظهر رجل آخر، إنه فتى في مقتبل العمر من أبناء الطبقة الراقية، أحبها وأحبته واتفقا على الزواج، ولكن أمه رفضت وسعت إليها، وعندما التقتا، قالت الأم لشفيقة:

– إني فخورة بصداقتنا القديمة ولكني لا أوافق على زواجك من شاب يصغرك بعشر سنوات!

فسألتها شفيقة:

– ومن قال لك أني سأتزوج شابًا صغيرًا؟

فقالت الأم:

– ابني.. ألا تعلمين أنه ابني؟!

ثم توسلت إليها أن تبتعد عن طريقه، وعندما همت الأم بالانصراف، قالت شفيقة وهي تبكي لأول مرة في حياتها:

– إني أعدك يا سيدتي... أعدك بالرحيل!..

وفي خلال أسبوع باعت المقهى، وقبلت العروض التي سبق أن عرضت عليها لرحلة تونس، وسافرت إلى هناك، وقضت شهورًا عكفت خلالها على الخمر والقمار، ثم الكوكايين، وعادت من رحلتها فقيرة معدمة، واعتلت صحتها وانفض عنها المعجبون بنفس السرعة التي التفوا بها حولها! ومرضت بالسكر، وعبثا حاولت البحث عن عمل!

وفي سنة ١٩٢٤ كان الشيخ سيد درويش جالسًا في أحد المقاهي بشارع عماد الدين، وفجأة التفت وراءه على صوت امرأة عجوز مشوهة الوجه – من أثر مرض السكر – تناديه بصوت كصوت الأشباح:

– يا شيخ سيد... يا شيخ سيد...

فنهض الشيخ سيد درويش، ووقف يتفرس فيها دقيقة، ثم سألها:

– مين إنتي؟

– حتى أنت يا شيخ سيد مش عارفني؟

– سامحيني يا ست... أنا مش واخد بالي منك!

– أنا شفيقة... شفيقة القبطية!

فانحني الشيخ سيد عليها يقبلها... ثم انتحى بها جانبًا، فقالت شفيقة:

– أنا مش عايزه فلوس... أنا نفسي أدوق السمك!

فبكى سيد درويش، وذهب بها إلى أقرب مطعم، وتناول معها طعام العشاء، ثم بعث صبيًا إلى المقهى ليحضر له العود، وفي تلك الليلة غنى سيد درويش لهذه العجوز المشوهة، وعمال المطعم، حتى مطلع الفجر!

واشتغلت شفيقة القبطية خادمًا، وساقها القدر – أو المخدم – إلى منزل أحد البكوات، وفي اليوم الثاني كانت شفيقة تحمل الأطباق، وتخرج بها من المطبخ؛ فرأت أمامها فجأة سيد البيت، فبدا عليها الفزع، وصرخت ثم ألقت بالأطباق على الأرض، وأسرعت إلى الخارج تجري كالمجنونة.

لقد كان هو نفسه الفتى الذي ضحت شفيقة بكل شيء من أجله!

واختفت شفيقة من البيت في لمح البصر، وعاشت بعد ذلك كالحطام، وازدادت حالتها سوءًا، وهامت على وجهها في الطرقات، وعادت إلى شارع نخلة كالشبح، ولم تجد مأوى سوى البيت الذي نزلت عنه لزوجها كمساري السكة الحديد!

كان الدكتور أحمد سري بك – وهو مفتش صحة شبرا – جالسًا في مكتبه عندما جاءه أحدهم وطلب إليه أن يزور سيدة بائسة، تفترش

الحصير البالي، وتنام كالمومياء... فذهب الدكتور لزيارة هذه المريضة المجهولة، فوجدها تحتضر، وسألها عن اسمها، فقالت بصوت خارج من الأعماق:

– شفيقة... شفيقة القبطية!

وفي صباح يوم من أيام الآحاد – سنة ١٩٢٦ – ماتت شفيقة القبطية، وخرج نعشها من شارع نخلة في طريق مستقيم إلى كنيسة «سانت تريزا»، ولم يمش في جنازتها سوى اثنين فقط، الزوج الذي كان يطاردها وهي تلعب بالذهب، ومعلم عربات الكارو، الذي كان يحميها منه!!

بمبه كشر

عالمة من ظهر ملك!

«كانت تبحث عن الذهب حينًا... وتبحث عن الحب حينًا... فإذا امتلكت الذهب، بحثت عن الحب... وإذا امتلكت الحب، بحثت عن الذهب»!!

كانت، وهي طفلة في التاسعة من عمرها، تقود والدها الأعمى الشيخ أحمد مصطفى كشر، الذي يقرأ القرآن الكريم وينشد المدائح النبوية في الأفراح وليالي القاهرة الملاح، وعندما يصل الشيخ إلى منصته المرتفعة في السرادق تتر كه الطفلة، وتصعد الى الطابق الأعلى الذي تجتمع فيه النساء، لمشاهدة الرقص والاستماع إلى الأغاني والفكاهات التي تلقيها «العوالم»، وعندما تعود إلى البيت تقف أمام المرآة، وتقلدهن واحدة بعد أخرى، ولم تكن الأم تمنعها من ذلك، فقد كانت هذه هي الوسيلة الوحيدة، التي ترفه بها الطفلة عن نفسها!..

قال لي الأستاذ حسن توفيق النحاس المدرس بحلوان والشهير بحسن كشر: أن جدته لأمه بمبه كشر كانت ناظرة على وقف جدها، وهذا الوقف يدر مائة وثمانين جنيهًا في كل شهر، توزع على المستحقين

من الأسرة، بواقع ثمانية جنيهات لكل فرع ينحدر من صلب جدها – الملك – صاحب هذا الوقف!

وهذا الوقف اسمه وقف الملك الأشرف إينال أبو النصر، الذي كان ملكًا على مصر وبلاد الشام، في عصر المماليك اليوسفيين!.. فحكم هذه البلاد إحدى عشر سنة وتسعة شهور وسبعة أيام! وهذا الملك مدفون في المسجد الأثري الذي يحمل اسمه، ويقع في أول شارع الخيامية!

ولما مات الشيخ أحمد مصطفى كشر، والد بمبه كشر، تزوجت أمها من الشيخ إسماعيل شاه – مقرئ السراي في عهد الخديو توفيق – ولكن بمبه التي أصبح عمرها ١٤ سنة، لم توافق على زواج أمها، حفيدة الملك الأشرف إينال أبو النصر، من الشيخ إسماعيل شاه، بعد أبيها!.. ولما أصرت الأم على الزواج، قامت الفتنة بين جدران البيت!.. وخرجت بمبه وشقيقتها نبوية – والدة السيدة فتحية أحمد – وشقيقاها محمود وعبد العزيز، وأقاموا جميعًا في شقة بممتلكات الأسرة بحي الخرنفش.

وتعرفت الفتاة بعالمة تركية كانت تراها في أفراح الذوات، اسمها «سلم» بضم السين واللام، وأعجبت بها «العالمة المشهورة»، وعرضت عليها العمل معها في نظير نصف بنتو من الذهب في الليلة الواحدة، واشتغلت معها بمبه كشر ليلة واحدة!.. وفي اليوم التالي حضر إليها أعضاء الفرقة، واجتمعن عندها في شبه مؤتمر... وانصرفت الفتيات، بعد

أن أسندن لها رئاسة التخت والعوالم، وبدأ أسم بمبه كشر يلمع في الأوساط الراقية!.

إن بمبه كشر عاشت وماتت، والمصريون ينادونها بست الكل، وكان الناس يعرفونها بالعربة الحنطور التي كانت تجري بها في شوارع القاهرة، وأمامها اثنان من العبيد يصيحان في المارة.

– وسع يا جدع!..

وعربة بمبه كشر هي العربة الوحيدة التي كتب عليها – بالذهب – هذان الحرفان: B. K. أي بمبه كشر! وبمبه كشر بدأت حياتها طموحًا لا تختلط بزميلاتها في شارع محمد علي، وإنما عاشت في نفس البيت الذي ولدت فيه بحي الخرنفش؛ فلم تطأ قدماها – مرة واحدة – سوق العوالم الشهيرة بشارع محمد علي! والنساء اللائي يشتغلن «عوالم» إما أن يأخذن هذه الصناعة بالوراثة عن أمهاتهن، وإما أن يشتغلن بها تحت ضغط الظروف!.

ولكن بمبه كشر أخذتها «غية»، والهواية تتطور دائمًا إلى احتراف، ولهذا كانت تنافس، وحدها، شارع محمد علي كله! فإذا رقصت «عالمة» من شارع محمد علي بالشمعدان، رقصت بمبه كشر في اليوم الثاني وعلى رأسها صينية تحمل ثلاثة أكواب مملوءة بالماء!

وتزوجت بمبه كشر من أول رجل تقدم لها، كان تاجر جلود اسمه إبراهيم الخرازاتي، وكان يؤجر منها دكانه، فيدفع لها الأجرة في أول كل شهر مصحوبة بعبارة أو بعبارتين من الغزل، وتزوجها، ولكنه مات قبل أن تمضي على زواجهما سنة.

وأصبحت «بمبه» بعد وفاة زوجها، الأمل الذي يداعب خيال شبان الحي، على اختلاف طبقاتهم وبيئاتهم.. كانت تمر في طريقها أمام محل شهبندر تجار النحاس، فيعاكسها ابنه توفيق النحاس، ويتعقبها في كل مكان تذهب إليه؛ فذهبت إلى أبيه التاجر الكبير لتبلغه شكواها، وفوجئت الفتاة بالأب يعرض عليها الزواج من ابنه!

فقالت بمبه:

– أهكذا تعرض مسائل الزواج في الطريق؟

فأعجب الرجل بهذا الرد، وبعد أيام قليلة زفت بمبه كشر إلى ابن شهبندر تجار النحاس!.. وأنجبت منه ولدين وبنتا: الابن الأكبر حسن تخرج في كلية العائلة المقدسة، والثاني ولد أبكم، والبنت خريجة مدرسة «البون باستير» اشتغلت حينًا من الزمن، عازفة قانون في تخت أمها، ثم اعتزلت العمل بعد وفاتها

ولم يعمر زواج بمبه طويلًا، فقد سئم الزوج أن يرى زوجته تعيش في أفراح الناس، وخيّرها بين الطلاق والأفراح، ففضلت الأفراح، واتفقا على أن يترك لها الأولاد، ولهذا عنيت بتربيتهم، ثم تزوجت من الرجل

الثالث في حياتها، وكان طبيبًا معروفًا، واختلفت معه لنفس السبب، فطلقت منه بعد مدة قصيرة.

لم يكن في استطاعة بمبه كشر في ذلك الوقت، أن تشتري عربة حنطور، وليس في مصر كلها – بين الرعايا – من يمتلك عربة حنطور يتقدمها «القمشجية» سوى الراقصة المشهورة «شفيقة القبطية».. وبمبه كشر لا تقل عنها فنًا أو جمالًا، وإنما كانت ترفض الرقص والغناء في المقاهي والمسارح، ولا ترقص إلا في أفراح البيوتات.

وفي سنة ١٩١٨ كانت تغني وترقص في فرح بمدينة المنصورة، وكان ج... باشا بين المدعوين، وأراد أن يشاهد الرقص، فمزق جزءًا من قماش «البارافان» وأطل من هذا الثقب، فلمحته بمبه كشر وتوقفت عن الغناء في الحال، والتفتت إلى الباشا قائلة:

– هل تحب أن تراني عارية؟

فقال الباشا:

– لا...

ثم اعتذر لها، وانسحب إلى حيث يجلس الرجال!

ولم تستطع بمبه أن ترفض الرجل الرابع الذي تقدم طالبًا يدها؛ فقد كان وجيهًا معروفًا من الوجه البحري، وهو أول رجل يشتري لها العربة الحنطور التي تحمل الحرفين الأولين من اسمها مكتوبين بالذهب، اشتراها من أوروبا، وكان يقدم لها في أعياد ميلادها، وفي حفلات الزار

التي كانت تقيمها، هدايا فاخرة: بيانو من أوروبا، و٣٥ فدانًا في محلة روح، و٤٥ فدانًا في شبرا شهاب، وأثاثًا للبيت بعشرة آلاف جنيها.. ولكن هذا الزوج الثري الذي بعثر تحت قدميها الذهب، لم يستطع أن يفوز بقلبها!.. فطلقته لتتزوج من الرجل الخامس...

كان الرجل الخامس فنانًا مشهورًا، ولكنه يلبس العمامة والجبة والقفطان، ويلف حول عنقه منديلًا، وكان يغني بهذا الزي في المسارح والكباريهات!.. إن هذا الرجل هو المطرب المشهور الشيخ سيد الصفتي! وعاشت معه بمبه مدة طويلة، إلى أن اختلفا لسبب بسيط، فقد طلبت منه أن يستبدل بالعمامة والجبة، بذلة وطربوشًا، ويتطور كغيره من الفنانين الذين غيروا زيهم، ولكنه رفض، وتم الطلاق بينهما، بنفس السرعة التي تم بها الزواج!

إن بمبه كشر كانت تفضل الرجل الذي تصرف هي عليه، على الرجل الذي يصرف هو عليها!.. ولكنها لم تستطع أن توفق في زواجها من هذين النوعين من الرجال، فقد كانت تبحث عن الذهب حينًا، وتبحث عن الحب حينًا، فإذا امتلكت الذهب، بحثت عن الحب... وإذا امتلكت الحب، بحثت عن الذهب!..

كانت حياتها مضطربة هكذا، ولذلك لم تعمر مع زميلها الفنان الذي تزوجته عن حب، وطلقت منه لتتزوج من الرجل السادس، وهو موظف كبير، قدم إليها «الشبكة» طقمًا كاملًا من الذهب الخالص حتى

«أستك» الجورب! ودفع لها المهر ستين فدانًا من أجود أراضي الوجه القبلي، ولكنها ضحت بكل ذلك مرة أخرى عندما خفق قلبها بحب زميلها عازف القانون محمد عمر!

إن الراقصات، بطبيعتهن، وصوليات! وبينهن – كسائر البشر – صاحبات الأرواح الطيبة والأرواح الشريرة!.. ولكن بمبه كشر كان يتبعها ثلاثون شحاذًا وشحاذة أينما تكن، يذهبون إلى بيتها في الصباح، ويسألون عنها البواب:

– أين ستسهر ست الكل؟

ثم يسبقونها إلى مكان الفرح، وينتظرونها حتى تحضر لتغدق عليهم المال!

وكانت بمبه تجيد اختيار الملابس التي تظهر بها في الأفراح، وتلبس لكل فرح الملابس التي تناسبه، ففي الأفراح الأرستقراطية ترتدي فستانًا للسهرة من النوع الذي ترتديه المدعوات، وتغير فستانها – في الليلة الواحدة – أربع مرات!

وإذا كان الفرح في بيت أحد أثرياء الجزارين، تحلت بالذهب والماس، ووضعت الثعبان الذهبي الكبير حول ذراعها، وبدت في زينتها مثل كليوباترة! وكانت متحمسة للزعيم سعد زغلول باشا حتى أنها فرشت يوم عودته من المنفى، شارع الموسكي كله، بالأبسطة والسجاجيد!

وأضاءت الأنوار على حسابها، وظلت فرق الموسيقى المتناثرة من أول الشارع إلى نهايته، تعزف الأغاني الشعبية حتى مطلع الفجر!

وبمبه كشر قامت بدور الأم في أول فيلم مصري، مع السيدة عزيزة أمير في فيلم «ليلى»! وماتت قبل أن ترى نفسها على الشاشة!

وكانت تعتز بكرامتها إلى أبعد حد؛ ففي أحد الأفراح جاء صالح عبد الحي ليغني في السرادق، واقترح على أصحاب الفرح، أن يحضروا فتحية أحمد، لتغني في الحريم؛ فغضبت بمبه كشر – وهي خالة فتحية أحمد – وثارت على صالح عبد الحي، واعتبرت اقتراحه هذا إهانة لها!.. لأن التقاليد جرت على أن الفرح الذي تغني فيه بمبه كشر، لا يجب أن تغني فيه مطربة أخرى!

وكانت أعظم حفلات الموسم، هي حفلات الزار التي تقيمها بمبه، وتحضرها جميع سيدات القصور والطبقة الراقية، وكانت فرقة موسيقى «حسب الله» تستقبل المدعوين بعزف السلام الوطني... وعلى السلم تصطف الفتيات اللائي يعملن في فرقتها، وهن يتمايلن وينشدن الأغاني العذبة، وفي «صباحية» الزار يحضر المطربان عبد اللطيف البنا وصالح عبد الحي، ويزفان «كرسي العوافي» الذي تجلس عليه عروس الحفلة، بمبه كشر، ويدوران حولها وهما يتغنيان بهذه الأغنية المشهورة:

كرسي العوافي نصبوه لك   قومي اخطري وطوفي حواليه

هذه هي قصة بمبه كشر، الفنانة التي استطاعت أن تنافس – وحدها – شارع محمد علي كله، على مدى ٤٥ سنة، وكانت تتحلى في الأفراح بمجوهرات يزيد ثمنها على ثمن ما تتزين به جميع المدعوات!

وفي سنة ١٩٢٨ اشتد عليها المرض، ولم تكن تستطيع الصعود على السلم؛ فكانت تجلس على كرسي، ثم يحملونها إلى الدور الذي يقوم فيه الفرح! وهكذا كانت تزف العرائس في آخر أيامها إلى أن توفيت، وفي جنازتها مشى معظم الفنانين والفنانات، وبعض الشخصيات البارزة في المجتمع المصري.. مشوا جميعًا حتى وصلوا إلى المسجد الذي صلي فيه على جثمانها..

وفي نهاية الجنازة، كان يمشي ثلاثون شحاذًا وشحاذة، منهم الأعرج والأعمى والمكسور، ولم تمنعهم عاهاتهم ولا أمراضهم، من أن يكونوا مخلصين لها حتى القبر!!

بديعة مصابني

ملكة الليل...!

«كانت تمثل أدوارًا مختلفة على مسرح التمثيل، على مسرح الحياة، ولكن الدور التي مثلته عند خروجها من مصر، هو أعظم وأخلد أدوارها على الإطلاق»!!

في سنة ١٩٣٤ كانت بديعة مصابني تجلس على باب صالتها بشارع عماد الدين، واضعة ساقًا على ساق و«الشيشة» لا تغادر فمها! وبين الحين والآخر، يأتي خادم من المقهى البلدي الذي يبعد عن صالة بديعة بضعة أمتار، فينفض رماد «الشيشة»، ويغير قطع الفحم الصغيرة المبعثرة، بأخرى في لون جهنم!..

وفي هذه الأيام كانت بديعة مصابني – أو ملكة الليل – قد وصلت إلى الغاية التي تتمناها كل راقصة، أو مغنية!.. ولم يكن ينقصها، وهي على أبواب الخريف، سوى شيء واحد فقط، هو أن ترى الناس يصفقون لها خارج الصالة!.. فقد كانت تذهب إلى دور العرض، مع بعض نجوم السينما، فترى الجماهير وهي تستقبل صديقاتها بالتصفيق،

أما هي صاحبة الصالة التي تربح في الشهر مئات الجنيهات؛ فإنهم يشيرون إليها بالبنان فقط!.

في ذلك الوقت، كانت الصالة تدر عليها بين ثلاثمائة وأربعمائة جنيها في الشهر، وهذا الربح لم يكن ليقاس، بالنسبة للأرقام الخيالية التي تدرها بعض الأفلام الشعبية التي تعرض في جميع أنحاء العالم العربي، وأرادت بديعة أن تحقق هذه الأمنية، ولكن بعد فوات الأوان!.

كانت مغامرة تحتاج إلى جرأة، وبديعة مصابني مولعة بالمغامرات، ولا تنقصها الجرأة!.. وأوراق الخريف تتعلق دائمًا بأغصان الشجر!.. ولهذا رأت أن تستعين في أول فيلم لها، بمخرج سينمائي، اسمه ماريو فولبي، وهو مخرج إيطالي طوح بكثير من أموال المنتجين المصريين في بحر الفشل! ولكنه كان يمتاز بالصراحة، وعندما التقت به لأول مرة، قال لها:

– أنت لا تصلحين للأدوار الأولى!.. أقصد دور الفتاة التي تحب وتكره، وتركب الحصان، وتقفز من الطابق الثاني!.

فقالت بديعة:

– إني أريد أن أرقص وأغني فقط، ولن أركب حصانًا أو أقفز من أي طابق؟!

– ولو... أليس عندك مرآة في البيت؟!

– عندي ألف مرآة!

– ألا ترين فيها عيوبك؟

– تقصد صدري؟

– إنه كالزهور الذابلة تتدلى من غصن رشيق!..

– وكيف أعالج هذا؟

– يجب إجراء عملية جراحية حالًا...

– بهذه السرعة؟

– وقبل البدء في تصوير اللقطة الأولى!

– لقد استشرت قبل ذلك كثيرين من الأطباء، أصدقائي وغير أصدقائي، فأجمعوا على أنها عملية خطرة...

– إذن.. ابحثي عن مخرج آخر!.

وهم المخرج الصريح الفاشل بالانصراف، فاستوقفته بديعة وقالت:

– إذن أبحث لي عن الجراح الذي يقبل إجراء هذه العملية؟.

– الطبيب موجود... إنه في الإسكندرية.

وسافرت بديعة مصابني إلى الإسكندرية، ودخلت مستشفى الجراح الإيطالي الساحر، ودفعت له مائة وثلاثين جنيهًا، وخرجت بعد خمسة عشر يومًا مرفوعة الصدر!.. وبدأ المخرج عمله في الفيلم الذي رهنت بديعة من أجله «فيللتين» بثمانية آلاف جنيها! وفي ليلة العرض الأولى لفيلم ملكة المسارح، اجتمع في بيت بديعة مصابني لفيف من أصدقائها وزملائها وزميلاتها، ليشربوا نخب ملكة المسارح والسينما أيضا!

وفي السهرات الخاصة التي تقيمها بديعة مصابني في بيتها، اعتاد الضيوف أن يعدوا أطباقهم وكؤوسهم بأيديهم، وهكذا فعلت صاحبة البيت في هذه الحفلة فقد أعدت كأسها بنفسها، وكانت الوحيدة التي تعلم أن الفيلم ساقط!.. وأن الجمهور الذي صفق لها طويلًا في حفلة العرض الأولى كان مأجورًا بالقروش القليلة التي بقيت من آلاف الجنيهات الثمانية!..

وعندما رفعوا كؤوسهم المليئة بالشمبانيا، رفعت ملكة المسارح أيضًا كأسها، وحاولت أن تخفي بأصابعها اللون الأحمر القاني فلمحها أحد المحتفلين بها، وسألها ماذا تشرب؟

فقالت بديعة:

– نبيذًا... هل أحضر لك الزجاجة؟

وهمت بأن تقوم، ولكنه منعها، ورفع كأسه بسرعة، وتبعه الجميع!.. ولم يرها أحد، في تلك اللحظة، وهي تسد أنفها بأصابعها

لتغالب قسوة الكأس، وشربت بديعة كأسها عن آخرها، ثم وقعت على الأرض تتلوى من الألم! لقد كانت «الكأس» مليئة بصبغة اليود!!.

وهنا نهضت الفتاة التي كانت تقيم معها في ذلك الوقت – ولعلها تحية كاريوكا – فأسرعت إلى المطبخ، وفتحت الثلاجة، ثم أخرجت كوبًا مترعًا باللبن، وقدمته – دون أن تدري – للمنتحرة، فشربته بديعة ثم أخرجت من فمها كل الطعام والشراب وصبغة اليود..

لم تكن هذه هي المرة الأولى والأخيرة التي حاولت فيها بديعة مصابني الانتحار؛ فقد حاولت قبل ذلك التخلص من الحياة، عندما فتحت باب شقتها فوجدت أمامها محضر محكمة عابدين... جاء ليوقع عليها الحجز! في تلك المرة ابتلعت عشرين قرصًا من الأسبيرين، دفعة واحدة!..

وكما عاشت شفيقة القبطية مهددة بشبح كمساري في السكة الحديد، عاشت بديعة مصابني مهددة بشبح محضر محكمة عابدين!

و«ملكة الليل» بدأت فقيرة معدمة، ويكفي أنها نشأت في بيت نوافذه مغلقة بالمسامير، وقد استهوتها وهي طفلة حياة الممثلات والراقصات، وقصتها لا تختلف عن قصة كل راقصة. لم تكن بديعة جميلة الصوت، ولا راقصة ممتازة، ولكنها كانت تتمتع بجاذبية وسرعة بديهة وخفة دم، هي كل رأسمالها في الحياة! وبهذا «الرأسمال» المتواضع نزلت إلى سوق الجواري والتمثيل، ولكنها لم تبدأ في القاهرة،

لأن ملاهيها كانت تغلق أبوابها دائمًا في وجوه الناشئين، ولهذا بدأت في الفرق المتجولة التي تبحث عن القروش والملاليم – الممسوحة – في قرى الصعيد! وتخصصت بديعة مصابني في تمثيل أدوار الرجال! وكانت تبالغ في التمثيل؛ فتطلب الشيشة وهي على المسرح، وتدخنها كالرجال تمامًا، وعاشت في هذا الجو سنوات إلى أن التقت بنجيب الريحاني في القاهرة، وتعاقد معها، ثم هربت منه إلى الشام، وفي الشام تعاقد معها مرة أخرى، ولكنه في هذه المرة وقع معها عقدين: عقد التمثيل، وعقد الزواج!

وننتقل الآن إلى بيت الزوجين!.. عندما تزوجت بديعة مصابني من نجيب الريحاني، حاولت أن تبيع له الحب ففشلت؛ وحاول هو أن يأخذه مجانًا ففشل!.. ولم ينتصر أحدهما على الآخر.. وكان الريحاني يغار عليها ويثور ويضربها، وكانت بديعة تبادله صفعة بصفعة و«شلوتًا بشلوت»!

كانت حياتهما تمثيلية تجمع بين البكاء والضحك والغضب، وغيرها من الانفعالات المختلفة، الانفعالات الطبيعية أحيانًا، والمصطنعة أحيانًا أخرى!.. الزوج يعيش كالفنانين يستقبل اليوم الأبيض، بنفس السخرية التي يستقبل بها اليوم الأسود! أما بديعة، فقد كانت بطبيعتها تحب الرفاهية، وتعجلت العز والأبهة، فانفصلت عنه، وبدأت تفكر في ذلك الورق الساحر الذي يستطيع الإنسان أن يشتري به كل شيء في الحياة، حتى عواطف الناس!

إن بديعة مصابني، وهي طفلة، كانت تتحلى بطقم كامل من الذهب والفضة من «الكردان» إلى القرط إلى الخلخال، وعاشت مولعة باقتناء القطع الذهبية والماسية، وعندما خرجت من مصر، كانت تتزين بمجوهرات قدرت بعشرين ألف جنيها!

وقد ذاقت بديعة في بداية حياتها ألوانًا مختلفة من الفقر والجوع والحرمان، وهي كلها من العوامل التي خلقت من ملكة الليل «إنسانة» تحرص على القرش ونصف القرش، ولا تضع مليمًا في غير المكان الذي يتسع له! وخرج نجيب الريحاني من بيت بديعة مصابني بحقيبة الملابس!..

وفي اليوم الثاني قرأت في الصحف، أن رجلًا يونانيًا يستأجر صالة في شارع عماد الدين، قد أفلس ويرغب في بيع عقد الإيجار؛ فلم تتردد «ملكة الليل» في بيع «مصوغاتها» واشترت بثمنها هذا العقد! كانت هذه الصالة ضيقة، لا تتسع لأكثر من عشرين مائدة، ولكن ملكة الليل، عرفت كيف تعصر العشرين مائدة، وتستخرج منها مائتي جنيها في الشهر ربحًا صافيًا!

إن هذه هي المدرسة الأولى في الشرق الأوسط التي خرجت أفواجًا من الراقصات الرسميات وغير الرسميات! وأخذت «ملكة الليل» تلقن الفتيات دروسًا في معاملة الزبائن!.. وكانت حريصة على أمزجة الناس، تعامل كلا منهم بالأسلوب الذي يرتاح إليه، وكانت قاسية صارمة،

تضحي بأية فتاة، وتلقي بها في عرض الطريق، إذا عبست في وجه عمدة من الأرياف، أو أساءت إلى «زبون» من طلبة المدارس الثانوية!

وبدأت «شلل» القاهرة تحتل موائد الصالة، وعلى هذه الموائد تتناثر الفتيات اللائي يطلقن على أنفسهن كلمة «أرتيست» وفي كل ليلة تعقد صفقات الحب، وتحدث المضاربات، في «الفتح»، بين الشبان الوارثين وغير الوارثين!

وأعدت بديعة مصابني «أوركسترا» يتكون من ثلاثة عازفين، وفي الموسم التالي كانت الصالة تتسع لخمسين مائدة، وازداد عدد الموسيقيين إلى عشرين عازفًا، وأصبحت حلبة الرقص في الكباريه، مزدحمة دائمًا كسلم الترام!

ووصلت أرباح بديعة مصابني في سنة ١٩٣٨ إلى أربعمائة جنيها في الشهر، ثم خمسمائة، فستمائة، فسبعمائة... ودارت عجلة الزمن بسرعة؛ ففي أكتوبر سنة ١٩٣٩ أنشأت ملكة الليل كازينو أوبرا بستة آلاف جنيها، وبعد شهرين من افتتاح هذا الكنز كانت أرباح بديعة مصابني قد وصلت إلى ألف جنيها في الشهر! وإذ ذاك استبدلت بالمسرح «كباريه» لجنود الحلفاء، وفي سنوات الحرب العالمية الثانية، استطاعت أن تجمع هذه الثروة التي قدرت – بعد خروجها من مصر – بمائتي ألف جنيها!

ودارت عجلة الزمن مرة أخرى!.. ففي يونيو سنة ١٩٥٠، كانت بديعة مصابني في مقهى كازينو أوبرا، الذي يطل على الميدان الكبير، وكانت تجلس – كعادتها – واضعة ساقًا على ساق، و«الشيشة» لا تغادر فمها! وبين الحين والآخر، يأتي خادم المقهى لينفض رماد الشيشة، ويغير بقطع الفحم الصغيرة المبعثرة، أخرى في لون جهنم! ولم يكن أحد في تلك الليلة يعلم أن بديعة مصابني قد أعدت العدة للرحيل، وفي فجر تلك الليلة، استطاعت أن تتسلل من الأراضي المصرية، بالثروة التي أصابت مصلحة الضرائب بالذهول! إن المغامرة التي قامت بها بديعة مصابني لتهرب من مصر، سهلة بسيطة، ولكنها تستحق عليها جائزة أوسكار!

إن ملكة الليل قضت عمرًا طويلًا على المسرح، واستطاعت أن تمثل أدوارًا مختلفة، على مسرح التمثيل، وعلى مسرح الحياة أيضًا، ولكن الدور الذي مثلته عند خروجها من مصر، هو أعظم وأخلد أدوارها على الإطلاق! فقد حصلت على جواز سفر لسيدة تشبهها إلى حد بعيد، اسمها مدام إلياس! ومدام إلياس هذه، شخصية لا وجود لها في مصر، كل ما هنالك أنه وصل إلى الداخلية جواز سفر باسمها، ومعه التماس بالموافقة على إقامتها في مصر خمسة عشر يوما، وبعد مضي هذه المدة عاد جواز السفر إلى الداخلية ليحمل تأشيرة الخروج، ويعطى لبديعة مصابني التي خرجت به من المطار!

إن وجه مدام إلياس – في الصورة الفوتوغرافية – لا يختلف عن وجه بديعة إلا في قليل، وهذا القليل عالجته الممثلة البارعة بقليل من الماكياج! وهكذا استطاعت ملكة الليل أن تمثل الدور الذي تستحق عليه جائزة أوسكار!

إن بديعة مصابني تجلس الآن في أحد الكازينوهات في عالية بلبنان، وهي تضع ساقًا على ساق، ولا تزال «الشيشة» في فمها، وبين الحين والآخر، يأتي خادم «الكازينو» لينفض رماد الشيشة، ويغير قطع الفحم الصغيرة المبعثرة بأخرى في لون جهنم!

ما أكثر القلوب التي حولتها ملكة الليل إلى قطع من الفحم، وما أكثر قطع الفحم التي حولتها بديعة مصابني إلى رماد!!

حكمت فهمي

الراقصة التي أحبها أمير عربي كبير!

«استطاعت أن تسيطر على جميع أنواع الرجال!.. جذبت المثقفين، وأحبها أنصاف المتعلمين، وملأت رؤوس العمد النازحين من الأرياف!. إذا تكلمت لا تسكت، وإذا سكتت فإنها تبكي»!!

في فيلا متواضعة المظهر بحي الدقي تعيش سيدة بائسة مع الطفل الوحيد الذي رزقت به منذ خمس سنوات من الزوج الثالث والأخير، الذي أخرج لها – بآخر ما تبقى عندها من قروش – فيلمًا ساقطًا وطفلًا جميلًا!. ولا يكاد جيرانها يعلمون شيئًا عنها، أكثر من أنها تخرج في الصباح، وتعود في نفس المواعيد، التي يعود فيها الموظفون إلى بيوتهم!

قال لي جارها الفضولي: أنه كثيرًا ما أطل من نافذة بيته على حديقة هذه السيدة، فرأى طفلها الجميل الصغير، وهو يجلس ساهمًا يعتمد ذقنه بين يديه، وعبثًا تحاول الخادمة أن تخرجه عن صمته! إن هذا الطفل يعيش وحيدًا، ليس له أصدقاء ولا صديقات في مثل سنه، ولا يرى

غير تلك الوجوه التي ألف رؤيتها: أمه، والخادمة، وبائعة اللبن، وأحيانًا بائع الفاكهة!

ويقضي هذا الطفل نصف اليوم، في انتظار عودة أمه في مواعيد الدواوين، بعد أن تقفل أبواب المحاكم!.. إنها ليست موظفة في محكمة، وإنما كثرت قضاياها حتى أصبحت المفكرة التي تحتفظ بها في حقيبة يدها القديمة، مليئة بالمواعيد مع المحامين ووكلاء المحامين ونمر القضايا وتواريخ الجلسات المستعجلة وغير المستعجلة!

هكذا تعيش حكمت فهمي الآن، في نفس الفيلا التي اشترتها منذ سنوات، من ابنة خالتها السيدة عزيزة أمير، بثلاثة آلاف جنيها، وأنت إذا دخلت الآن، هذه الفيلا التي كانت في يوم من الأيام، مضرب المثل لسكان هذه المنطقة، رأيت الحديقة وقد تناثرت فيها الأشجار العتيقة بأوراقها الصفراء الذابلة، يكاد بعضها يقع من شدة الإعياء، والبعض الآخر يتمايل ويحنو على الزرع العطشان!.. فإذا صعدت على السلم إلى الدور الأول، وجدت صالة كبيرة تتوسطها قطعة من السجاد العجمي، وطقما للجلوس يملأ بعض الفراغ في الصالة، وإلى اليسار غرفة الصالون، ثم غرفة الطعام.. إن نظرة عابرة على أثاث البيت، تعطيك فكرة واضحة عن بقايا العز القديم!.

إن هذا البيت، هو بيت الذكريات، لفنانة تحتفظ بذكرياتها، وتحرص عليها، كما تحرص الأم على طعام ابنها الرضيع! فهي تدفن في

حديقة دارها جميع الخطابات والرسائل الغرامية، التي أرسلها لها أمير عربي كبير كتبها بخط يده منذ أكثر من عشر سنوات!

وحكمت فهمي هي الراقصة المصرية الوحيدة التي رقصت في الفترة بين سنة ١٩٣٧ وسنة ١٩٣٩ في قصور ملوك أوروبا وزعمائها، قصرًا قصرًا، رقصت أمام دوق وندسور، وهتلر، وموسوليني، وجورنج، وجوبلز!.. وتعرفت بكثير من الضباط الألمان، واستغل اثنان منهم، علاقة الصداقة التي نشأت بينها وبينهما؛ فجاءا إلى مصر، في الحرب العالمية الأخيرة، وقد تنكر أحدهما في شخصية طالب بجامعة فؤاد، وتنكر الثاني في شخصية الابن الأكبر لجعفر والي باشا!..

وجعفر والي باشا تزوج في ألمانيا من سيدة ألمانية وأنجب منها ولدًا هو حسين جعفر، وهذا الضابط – الجاسوس – الذي انتحل شخصية حسين جعفر، هو في الحقيقة، شقيق حسين من والدته الألمانية!.. وبين الاثنين شبه كبير، استغلته إدارة المخابرات الألمانية أبرع استغلال!

وقصة حكمت فهمي تبدأ من نهايتها! ففي سنة ١٩٤٢ كانت ترقص في فندق الكونتنتال بأجر ١٢٠ جنيهًا في الشهر، ويبلغ صافي أرباحها من الفتح (فتح زجاجات الشمبانيا والويسكي) ٣٠٠ جنيها في الليلة الواحدة!

في ذلك الوقت كانت حكمت فهمي هي الراقصة المصرية الوحيدة التي تحضر حفلات الجيش البريطاني، وتختلط بكبار الضباط في القوات المتحالفة، وفي إحدى ليالي الصيف، وكانت ترتدي فستانًا للسهرة، تقدم منها اللواء محمد إبراهيم إمام بك، وهمس في أذنها:

– أنا عايزك دلوقت!

فدعت رئيس القسم السياسي إلى الجلوس معها ولكنه اعتذر قائلًا: إنه يريد أن يتحدث إليها خارج هذا المكان، ونزلت معه في الأسانسير، وقبل أن يصلا إلى الباب الخارجي قال لها:

– خذي معطفك؛ فربما لا نعود!

وعندما وصلا إلى نهاية السلم، تقدمت سيارة ووقفت أمامهما، وكانت تحمل بعض الجنود فركبت حكمت فهمي معه، وانطلقت السيارة إلى مبنى يحرسه الجنود. وبعد ربع ساعة عرفت حكمت فهمي أنها نزلت ضيفة على سجن الأجانب بسبب علاقتها مع الجاسوسين الألمانيين!..

وعندما دخلت الغرفة «رقم ٦» لم تجد فيها سوى سرير صغير، وطبق واحد وأبريق من النحاس به ماء... وسمعت من ورائها صوت السجانة «أم صالح» وهي تقول:

– أهلًا وسهلًا... شرفتينا!

ثم التفتت السجانة إلى الطبق والأبريق المملوء بالماء وقالت:

– دول متحضرين لك من ٣ أيام... وحياتك كل يوم أغير المية دي!

وظلت حكمت فهمي في هذا السجن، أو المعتقل، سنتين ونصف سنة، وبعد يومين كانت قد تعرفت إلى جميع المعتقلين والمعتقلات في ذلك الوقت، من عزيز المصري باشا إلى أسمهان!..

قالت حكمت فهمي:

وفي ثالث يوم قضيته في السجن، زارني موظف كبير بالسفارة البريطانية، وكان معه مأمور السجن؛ فأيقظني من النوم، وأخذ يتحدث معي قليلًا ثم أطل من النافذة وطلب من المأمور إصلاح الحديقة!

وعندما هم بالانصراف، طلبت منه أن يبعث إلي بعلبة سجائر؛ فأرسل إلي «سلة» مليئة بالعنب البناتي، وعشر علب سجائر، وسمحوا لي بالتدخين!

كانت «أسمهان» تنزل في الغرفة «رقم ١٣» ولكنهم لم يسمحوا لها بالتدخين؛ فلما علمت بالنبأ أرسلت إلي ورقة تطلب فيها سيجارة واحدة!.. فأرسلت لها علبتين!

وكانت الرسائل بين أسمهان وحكمت فهمي، توضع فوق «السيفون» بدورة المياه!

وفي السجن تعلمت حكمت تهريب الطعام والخطابات إلى زملائها وزميلاتها، وكانت علاقتها بالمأمور قد بدأت تتحسن، بعد أن زارها الإنجليزي الكبير في السجن، وأصبحت موضع احترام الضباط والسجانين، وفي أحد الأيام قال لها عزيز المصري باشا: إن له عندها أمنية واحدة، هي أن تعرف من المأمور الخطوة التالية، هل سينقلونه إلى سجن مصر أو إلى مستشفى الدمرداش!

ثم هز الضابط العظيم رأسه، وقال بأسى:

– كم يعز علي أن أموت قبل أن أرى ابني الوحيد الذي يتلقى علومه في أمريكا!

وخرجت حكمت فهمي في نهاية عام ١٩٤٤...

وفي سنة ١٩٤٦ أنتجت فيلم «المتشردة» الفيلم الذي وضعت فيه خلاصة كفاحها وثروتها، وفي أثناء إنتاج هذا الفيلم تزوجت من المخرج محمد عبد الجواد، وأنجبت منه ذلك الطفل الجميل الذي يجلس في الحديقة ساهمًا يعتمد ذقنه بين يديه، وعبثًا تحاول الخادمة أن تخرجه عن صمته!..

إن حكمت فهمي، الراقصة التي كان يتبارى شعراء مصر في وصفها، والتي خلدها اثنان من أكبر الشعراء، هما الدكتور إبراهيم ناجي بك والأستاذ أحمد رامي، بدأت حياتها ممثلة صغيرة في الفرق المتنقلة بين الوجه البحري والوجه القبلي بأجر عشرة قروش في اليوم، ثم سافرت

في رحلة إلى الأقطار العربية، وهناك لمع اسمها، ووصل أجرها إلى ستين جنيهًا في الشهر!.. وعادت من هذه الرحلة لتتولى بطولة فرقة بديعة بمرتب ٣٠ جنيهًا في الشهر، ولكن دخلها من الفتح كان يصل في الليلة الواحدة إلى مائة جنيها!

إن حكمت فهمي تعلق في صالة فيلتها ثلاث صور لثلاثة رجال، تضعها في إطارات تختلف باختلاف مكانة كل منهم في قلبها!.. ولكل صورة من هذه الصور قصة؛ فالرجل الأول في حياة حكمت فهمي كان مليونيرًا من البرازيل! تعرفت به على ظهر باخرة، ورقصت معه رقصة واحدة ثم دعاها إلى العشاء، وعرض عليها الزواج في كلمة ونصف، فوافقت في الحال!

قال لها أنه يدير مصانع البن التي يملكها والده، وأن ثروته وحده تبلغ مليونين من الجنيهات! ولكنه كان مسيحيًا! وافترق الاثنان، فنزلت هي في إحدى الموانئ وواصل هو رحلته إلى البرازيل

وبعد سنة ونصف التقى الاثنان مرة أخرى، في كازينو كوبري الجلاء، وفي هذه المرة أصر على الزواج منها، وأشهر إسلامه في المحكمة الشرعية، بعد أن اختار لنفسه اسمًا جديدًا هو «محمد أنور» ثم قرر الإقامة في مصر وأخذ يعد العدة لافتتاح مصنع كبير للبن البرازيلي في القاهرة!.. وبعد ستة أشهر، كان نبأ زواجه قد وصل إلى أبيه في البرازيل، فأرسل إلى المفوضية يطلب فسخ هذا الزواج الذي تم دون

علمه... وتدخل القنصل، وقبلت حكمت فهمي الطلاق بعد أن دفع خمسة آلاف جنيها، هي قيمة مؤخر الصداق.. هذه هي قصة الصورة الأولى!!

والصورة الثانية لزوجها الثاني، وكان ضابطًا برتبة ملازم أول بسلاح الطيران الملكي، ولكن هذا الزواج لم يدم طويلًا، وعقب طلاقها مباشرة، اعتقلت، وخرجت من السجن محطمة الأعصاب؛ فقد عاشت وراء القضبان سنتين ونصف سنة فقط، ولكن هذه المدة كانت تساوي عشر سنوات من عمرها!

وأرادت حكمت فهمي أن تستعيد مجدها وشهرتها في أسرع وقت ممكن، فاتجهت ناحية السينما، وتزوجت من المخرج السينمائي الذي أخرج لها فيلمًا ساقطًا، وطفلًا جميلًا، إن الصورة الثالثة هي صورة زوجها الأخير الأستاذ محمد عبد الجواد.

في بداية هذه القصة، قلت أن هناك قصة غرام وقعت حوادثها منذ أكثر من عشر سنوات بين أمير شرقي وبين الراقصة حكمت فهمي، وقد بدأت هذه القصة عندما كانت حكمت فهمي ترقص على المسرح، فلما انتهت من رقصتها، جاءها رسول يدعوها لمصافحة سمو الأمير؛ فذهبت إلى مقصورته، وهناك وجدت ثلاثة شبان، لم تستطع أن تميز من بينهم سمو الأمير!

وفي الساعة السادسة من مساء اليوم الثاني، استقل الأمير سيارته السوداء الكبيرة وذهب إلى المسرح، ودعاها لتتناول معه فنجانًا من الشاي في محل عام، وقبل أن تنزل من السيارة، قدم إليها علبة فاخرة، لم تكد تفتحها حتى بهرت عينيها!.. لقد كانت فيها قلادة من الماس!

وفي اليوم الثالث دعاها مع إحدى زميلاتها، لزيارة قصر أبيه الملك ثم زارت قصر الحريم، وقضت حكمت فهمي في تلك البلاد أربعين يومًا في أفخم فندق، وعندما اعتزمت الرحيل وطلبت فاتورة الحساب من إدارة الفندق، قيل لها أنها كانت في ضيافة سمو الأمير..

كانت حكمت فهمي قد أعدت كل شيء للرحيل، ثم اتصلت بالأمير لتستأذنه في السفر وتشكره على العطف الذي أبداه نحوها؛ فعارض في رحيلها؛ فقدمت إليه البرقية التي وصلت إليها – في نفس اليوم – من والدتها في مصر تخبرها فيها بأنها مريضة وتطلب إليها الحضور فورًا!..

هذه هي قصة حكمت فهمي، الراقصة التي تحمل الآن مفكرة مليئة بالمواعيد مع المحامين ووكلاء المحامين.. إنها هي نفسها صاحبة الفيلا المتواضعة المظهر بحي الدقي، وهي أيضًا أم الطفل الجميل الذي يجلس في حديقة داره ساهمًا.. يعتمد ذقنه بين يديه.. وعبثًا تحاول الخادمة أن تخرجه عن صمته!!

ببا عز الدين

الباحثة عن الذهب!

لم تكن ببا عز الدين تعبأ بالزينة، أو الفساتين، أو المجوهرات، بقدر ما كانت تحترم الألف والألفين! ولقد بدأت ببا حياتها باحثة عن الذهب، تسعى وراء القطعة الذهبية التي رأتها لأول مرة في حياتها، فلما أضحت تمتلك عشرات القطع التي تتدلى من سوار في معصمها، كان الزمان قد تغير، وصرنا في زمان لا نرى فيه الذهب إلا في دار الآثار! وأصبحت العملة السريعة النافذة في كل مكان، هي ورق البنكنوت! ومن هنا بدأت ببا تبحث عن ورق البنكنوت!

وببا الراقصة الناشئة، لا تختلف عن ببا صاحبة الصالة في شيء، فهي هنا وهناك، تستطيع أن تزن الوقت، وتبيعه بأغلى ثمن! إن العباقرة من رجال المال، هم الذين يحرصون على أوقاتهم، كما يحرصون على أموالهم سواء بسواء!..

وببا كانت فتاة خمرية اللون، تميل إلى البياض، شعرها أسود، ورأسها صغير، وعيناها مستنجدتان، وأنفها دقيق، وفمها يبتسم، حتى في أحلك الأيام!..

في سنة ١٩٢٣ كانت فاطمة عز الدين في الثالثة عشرة، طفلة يتيمة الأب، تعيش في بيت عمها، وكانت مخطوبة لشاب «قهوجي» عمره ١٧ سنة، وقبل عقد القران بيوم واحد، ذهبت إلى إحدى جاراتها لتفصل عندها الثوب الذي ستلبسه في ليلة الزفاف.. وجلست فاطمة عز الدين تراقب الجارة، وهي تدير الماكينة بمهارة، وسألتها عن ثمن هذه الماكينة، فقالت إنها اشترتها من مصر بجنيهين من الذهب! وانتقل الحديث من الماكينة إلى الجنيهات الذهب؛ فسألتها فاطمة عز الدين:

– أريد أن أرى هذه العملة الذهبية!..

فقامت الجارة إلى غرفة مجاورة، ثم عادت فألقت في حجرها جنيهًا ذهبيًا؛ فأخذت تقلبه بدهشة ثم قالت:

– من أين لك هذا؟

– من رجل مصري!

– وما صناعته؟

– تاجر!.. إن التجار فقط، هم الذين يتعاملون بهذه العملة البراقة!

– ولماذا لا يحمل عمي ولا خطيبي، ولا أبوه صاحب المقهى، مثل هذا الجنيه؟

– لأنهم ليسوا تجارًا!!

وفي اليوم الثاني، عقد قرانها على ابن «القهوجي» وفي المساء ألبسوها الطرحة البيضاء التي استعارتها أمها من ابنة الجيران، لتزف بها إلى العريس، وقبل الزفاف بدقائق، هربت فاطمة عز الدين عن طريق السطح إلى بيت آخر!. ثم ذهبت إلى الجارة التي تعمل ممثلة في فرقة أمين عطا الله، وقصت عليها ما حدث، ثم توسلت إليها أن تأخذها معها إلى بيروت، وتقدمها لمدير الفرقة!.. وفي بيروت وقفت فاطمة عز الدين ترقص أمام لجنة الامتحان المكونة من بطلات الفرقة: حكمت فهمي، وأديل ليفي، وأمينة محمد وفيكتوريا حبيقة – الممثلة الآن بفرقة الريحاني – وعندما انتهت الفتاة الصغيرة من الرقص، صفق لها مدير الفرقة أمين عطا الله، ونسي اسمها فقال:

– برافو يا بيبي!.

وكان أمين عطا الله يقصد بكلمة «Baby» «بيبي»، أن يقول طفلة باللغة الإنجليزية، وتطور هذا الاسم، على مر الأيام فأصبح ببا!! و«بيبي» هو الاسم الذي كانت بديعة مصابني تناديها به طول حياتها!

ورقصت «بيبي» عز الدين، في الليلة الأولى، ونجحت، ولكنها قالت لي: أن نجاحها كان بسبب الإشفاق عليها أكثر مما كان بسبب الإعجاب بها!.. فقد كانت هزيلة شاحبة... والجماهير – في ذلك الوقت – تحب الراقصة الممتلئة الباسمة!

وانقلب الفرح في بيت عمها إلى مأتم، وحاولت الأم أن تعيد ابنتها إلى بيت زوجها أكثر من مرة، ولكنها فشلت لأن بيبي عز الدين، كانت تخشى من انتقام عمها وزوجة عمها اللذين أذلاها وهي طفلة، وكانت كلما دفعها الحنين إلى أسرتها، تتذكر الأيام السوداء التي قضتها معهما، وهكذا تقرر مصيرها بعد شهرين، فأرسل لها زوجها قسيمة الطلاق!

وفي بيروت تعرفت إلى تاجر مصري من الإسكندرية، وعرض عليها الزواج، وعندما سألها عن المهر، طلبت جنيهًا ذهبيًا!. وتزوجت للمرة الثانية! وجاءت معه إلى الإسكندرية، وأقامت مع أسرته في حي الأنفوشي ما يقرب من ستة شهور، وبدأت العلاقات تتوتر بينهما بسبب الستار الحديدي الذي أقامه حولها الزوج، وفي شهر رمضان – سنة ١٩٢٤– كانت فرقة فوزي الجزايرلي تعمل في أحد المسارح بالإسكندرية، وكان النظام المتبع في هذا المسرح، أن تجلس السيدات في الصفوف الأولى، والرجال في الصفوف الخلفية، ودعاها زوجها لمشاهدة التمثيل، فلما ذهبت معه عاودها الحنين إلى الرقص، فطلبت من زوجها أن تذهب في اليوم الثاني والثالث. وفي اليوم الرابع تعرفت بالفتى الأول في الفرقة فؤاد الجزايرلي – المخرج السينمائي الآن – وكانت تظن أن في يده مفاتيح شهرتها!

وبعد أيام هربت – للمرة الثانية – من بيت الزوجية، وذهبت إلى الممثل في مسرحه فلم تجده.، وسألت عن فرقة الجزايرلي، فقيل لها أنها رحلت إلى القاهرة!

وذهبت فاطمة عز الدين بالملاءة الشامي و«البقجة» إلى محطة الإسكندرية، وسألت عن القطار الذاهب إلى القاهرة. ولم تكن تملك سوى ثلاثة جنيهات تحرص عليها وتربطها في منديل داخل منديل، فركبت من باب الاحتياط، في عربة الدرجة الثالثة! وعندما وصل القطار إلى طنطا سألت عن فرقة فوزي الجزايرلي، فقيل لها أنها في دمنهور!.. ولم تهن على الباحثة على الذهب، أجرة العودة من طنطا إلى دمنهور، فواصلت الرحلة، وظلت في القطار حتى وصل القاهرة... وفي محطة مصر، ذهبت إلى «البوسفور»، وسألت عن صديقتيها – من بيروت – الراقصة عزيزة زمبلك، والمطربة رتيبة أحمد، وعرفت أنهما تعملان بفرقة يوسف عز الدين في روض الفرج... وقدمتها عزيزة زمبلك إلى مدير الفرقة، الذي طلب أن يراها – في بروفة – فتناول الرجل صينية القهوة وأخذ يدق عليها، ورقصت فاطمة عز الدين، وبعد البروفة اتفق معها على العمل نظير عشرين قرشًا في اليوم!

وبعد يومين من توقيع هذا العقد، ذهبت إلى الفنتازيو، لزيارة إحدى صديقاتها، من بيروت، فعرض عليها، أصحاب الفنتازيو، العمل معهم في نظير ١٨ جنيهًا في الشهر؛ فوقعت على العقد، وألقت بالاتفاق الأول في عرض الطريق!.

وبعد شهرين، ذهب نجيب الريحاني وزوجته بديعة مصابني إلى الفنتازيو، وشاهدا ببا عز الدين لأول مرة، فتعاقدت معها بديعة على العمل – في كازينو بديعة – نظير خمسة وعشرين جنيهًا في الشهر،

وهكذا خرجت ببا عز الدين مع بديعة مصابني، ولم تعد إلى الفنتازيو مرة أخرى!

وأعلنت بديعة في الصحف، أنها جاءت بوجه جديد من لبنان سوف يثير ضجة!

وبدأت ببا عز الدين تعمل في فرقة بديعة، واستطاعت أن تنتزع تصفيق الجماهير من بطلة الفرقة – أفرانس – وتصبح في شهور قليلة، الراقصة الأولى في الفرقة!

قالت لي فاطمة عز الدين أنها كانت في سنة ١٩٢٩ معروفة في الصالات بصديقة الطلبة! وكان طلبة المدارس الثانوية، وبعض طلبة الجامعة، يحضرون في كل ليلة جمعة، إلى الصالة، ويشتركون في ثمن زجاجات البيرة التي تطلبها ببا عز الدين! فيدفع كل منهم ريالًا، وكانت ببا هي الفتاة الوحيدة في كازينو بديعة، التي لا تعجب العمد الذين يجيئون من الأرياف!

وفي سنة ١٩٣٠ بدأ اسم ببا عز الدين يلمع في مدينة القاهرة، وفي سنة ١٩٣٤ كان رصيدها في البنك ألفي جنيها... وفي سنة ١٩٤١ وصلت أرباحها إلى ألف وخمسمائة جنيها في الشهر!

إن ببا عز الدين تزوجت ست مرات ولكنها أحبت في حياتها مرة واحدة فقط... أحبت من كل قلبها الزوج الثالث!.. أحبته ١٩ سنة!

والزوج الثالث هو أحمد عيسى الشهير بأنطوان عيسى، وهو ابن شقيقة السيدة بديعة مصابني، فكان أول رجل يعطف عليها في مدينة القاهرة، وكان يعاملها برفق، ويدير شئونها الخاصة، ويهتم بها اهتماما كبيرًا، وكانت ببا – في ذلك الوقت – تقيم في بيت بديعة مصابني، وأنطوان عيسى هو الرجل الوحيد الذي كان يلازمها في البيت وفي الطريق وفي الصالة، وكانت بديعة مصابني تبارك هذا الحب حينًا، وتثور عليه حينا؛ فتفرق بينهما، ثم تجمعهما، وهكذا حتى أسست الباحثة عن الذهب فرقتها وتزوجت من أنطوان عيسى! وأصبحت ببا عز الدين شريكة لأنطوان عيسى في كل شيء، حتى في المسرح الوحيد الذي يملكه!

قلت أن ببا عز الدين التقت بفؤاد الجزايرلي مرة – في سنة ١٩٢٤ – في السرادق الذي كان يعمل به وهو ممثل صغير، وفي سنة ١٩٤٧ كانت قد طلقت من الزوج الثالث، فتزوجها فؤاد الجزايرلي وهو مخرج سينمائي، وكانت ثروة ببا قد بلغت بعد الحرب حوالي خمسين ألف جنيها؛ فعرض عليها أن تعتزل العمل وتستريح، ولكنها لم تستطع، فطلقت من زوجها الرابع، وعادت إلى الصالات.

وفي فبراير سنة ١٩٥٠ قررت بديعة مصابني تصفية أموالها والسفر إلى لبنان؛ فاشترت ببا عز الدين كازينو أوبرا منها بعشرين ألف جنيها! وتزوجت بعد ذلك من موظف كبير زواجًا عرفيًا لم يدم طويلًا. ثم تزوجت للمرة السادسة من مقاول، وحاول هذا المقاول أن يثنيها عن العمل بالصالات، ولكنها كانت تحب الصالات أكثر مما تحب

الأزواج!.. وهكذا كانت كلما تزوجت يصطدم قلبها بالذهب، فتنتصر للذهب! وتدوس قلبها بقدميها!

إن ببا عز الدين كانت أجمل فتاة قدمت مصر من بر الشام، ولهذا كان ضحاياها كثيرين، ومن هؤلاء عباس عرفي موظف الأوقاف الذي اختلس – في سنة ١٩٣٥ – تسعة آلاف جنيها من أموال الحكومة، ولما خرج من السجن زارها مرة وأخرى، وفي ثالث مرة طردته من الصالة!

إن هذا الرجل يجلس الآن على «الكيس» في المقهى البلدي الشهير – بقهوة لقطع – أمام محطة الإسكندرية!.. وهناك قصة أخرى هي قصة طالب بالمدرسة العباسية الثانوية، انتحر من أجلها، وابتلع أقراص الأسبرين. وماتت الباحثة عن الذهب التي جمعت من الكباريهات في سنوات الحرب العالمية الثانية ثروة قدرت بستين ألفًا من الجنيهات..

وفاطمة عز الدين لها شقيقان من أبيها، ورث كل منهما عشرة آلاف جنيها، وشقيقتان من أمها، ورثت كل منهما ٣٨٠٠ جنيها، أما الأم فكان نصيبها مثل إحدى بناتها ٣٨٠٠ جنيها، وهكذا ضاع الذهب الذي أضنت الباحثة عن الذهب نفسها لتجمعه، ضاع منها بعد أن كدسته أكوامًا أكوامًا. إنها اليوم لا تملك إلا كومة أحجار مكدسة على قبرها، بل إنها لا تملك حتى هذه الكومة المكدسة من الأحجار!

كاميليا

الذهب للخدم والماس لكاميليا!

– أنا ما باشوفشي أفلام مصرية!..عن إذنك بقى..أنا ح أقفل السكة..

– تقفل السكة في وشي أنا؟

– ليه؟ إنتي مين؟

– أنا أجمل بنت في البلد!.. أنا كاميليا!

– وعاوزه إيه؟

– عاوزة أأجل القضية بتاعتي...

– إنتي مش ليكي محامي؟

– عندى عشرة محامين...لكن مش لاقية ولا واحد منهم دلوقتي!

فلم يرد عليها القاضي، ووضع سماعة التليفون!

وتهالكت كاميليا «الطفلة الساذجة» على السرير.. تبكي سوء الحظ!

***

كانت كاميليا تعيش بعواطف طفل، تسعدها كلمة، وتشقيها كلمة، وكما كان جمالها سببًا في حياة النعيم التي تحياها..كذلك كان سببًا في شقائها! فمعظم الناس كانوا يترددون في مساعدتها خوفًا على أنفسهم من جمالها أحيانًا، وعلى سمعتهم أحيانًا أخرى!

إن كاميليا لم تكن لتعبأ بأوراق البنكنوت، فكثيرًا ما داستها بقدميها!.. عرض عليها ثري خمسمائة جنيها في مقابل سهرة واحدة؛ فرفضت! وقضت سهرتها هذه مع مصور سينمائي بائس، لا يمتلك مليمًا واحدًا!

ولم تهتم بالذهب!.. فقد أهداها أصدقاؤها في أحد أعياد ميلادها مجموعة من الأساور الذهبية، والخواتم، والأقراط؛ فشكرتهم، وفي اليوم التالي وزعتها على الخدم! ولكنها مع ذلك، كانت تتحلى بالقطع الماسية النادرة والتي تعلو وتهبط فوق صدرها..كأقدار الرجال!.

في أغسطس سنة ١٩٤٦، دخلت «ليليان كوهين» مع إلهام حسين، من باب فندق وندسور بالإسكندرية، وبعد عشر دقائق، خرجت وهي معلقة بذراع أحمد سالم!

وفي الطائرة، قال أحمد سالم لليليان كوهين: أنه يفكر في الاسم الجديد الذي سوف يقدمها به للناس! فلم ترد عليه الفتاة!.. وسألها عن سبب شرودها، فقالت إنها كانت تفكر في أمها!

– أمك؟

– نعم.. أهي مسألة عويصة جدًا أن تكون لي أم!

– ولكنها لا تعلم أنك سافرت إلى القاهرة؟

– سأكلمها بالتليفون من هناك!

– وأين أبوك؟

– إنه غير موجود!

– مات؟

– لا أعلم.. دعنا من هذه الأسئلة الآن!

– وأين تقيم أمك.. وكيف تعيش؟

– إنها صاحبة بنسيون.. في الرمل!

وفي القاهرة، عرض أحمد سالم الفيلم القصير الذي التقطه لليليان كوهين، وأبرقت الفتاة لإلهام حسين تخبرها بأنها أصبحت «نجمة

سينمائية»، ولم توقع البرقية باسمها الحقيقي، وإنما وقعت باسمها الجديد الذي اختاره لها أحمد سالم: "كاميليا"!!

وظهرت كاميليا في المجتمع المصري، وهذا المجتمع دائمًا في حاجة إلى وجوه جديدة! وبدأت كاميليا تمد يدها لكل من يقبلها بالثمن!.. وكانت تعلم أنها كلما ازدادت شهرة، كلما ارتفع هذا الثمن، ولهذا كانت هي النجمة السينمائية الوحيدة التي لم ترفض عقدًا مهما هبطت قيمته! وقد تعرفت في إحدى السهرات بتاجر مصري علمها كيف تكون سيدة صالون.

ثم بحثت عن المسكن فاختارت أعلى شقة في مدينة القاهرة، وهي الشقة رقم ٩٢٩ بعمارة الإيموبيليا! ولم يمنعها مرضها بالسعال الديكي من تدخين أربعين سيجارة في اليوم الواحد. وكانت كاميليا معجبة بنفسها وتعتقد أنها أجمل فتاة في مصر، حتى أنها كانت تثور وتغضب إذا دخلت أحد المحال العامة، ولم يلتفت إليها أحد، أو يغازلها بصوت مسموع!

وتعرفت في إحدى السهرات بالمتهم الأول في قضية الاختلاسات، فقدم إليها في اليوم الثاني خاتمًا ماسيًا ثمنه ٢٨٠٠ جنيها، لتسمح له فقط بأن يقبل يدها وفيها هذا الخاتم الثمين!

وفي سنة ١٩٤٨ كانت كاميليا تمثل في فيلم «ولدي».. وفي فترة الاستراحة بين اللقطة والأخرى تقدم منها رجل إيطالي عجوز يلبس

ملابس السهرة، وكان واحدًا من كثيرين يعملون في نفس الفيلم، فصافحها الرجل بحرارة، ثم قال لها إنه لم يشتغل قبل ذلك «كومبارس» ولكنه اشتغل في هذا الفيلم فقط، لكي يراها يومًا كاملًا عن قرب! لم يكن مظهره يدل على أنه عاشق جديد، ولكنه كان يتحدث بصوت متهدج فيه كثير من الانفعال.. ودار بينهما حديث طويل، ثم أخذته من ذراعه وذهبت به إلى غرفتها الخاصة، وفي هذه الغرفة استمعت كاميليا إلى قصة حياتها منذ ولدت إلى ذلك اليوم.. ولم تستطع العمل في تلك الليلة، وقد تعللت بما أصابها من صداع، وتأجل العمل لليوم التالي.. وخرجت كاميليا مع الرجل العجوز من الأستوديو في سيارتها الكاديلاك الفاخرة.. ودهش الممثلون والممثلات وعمال الأستوديو، وتساءلوا جميعًا:

– من يكون ذلك الرجل العجوز الذي بكت أمامه كاميليا وامتنعت عن العمل من أجله؟!

وكانوا معذورين، لأنهم لم يستمعوا إليها – قبل أن تذهب به إلى غرفتها الخاصة – وهي تسأله:

– من أنت؟

– أنا أبوك!

وفي تلك الليلة.. عرضت كاميليا خدماتها على أبيها الذي رأته – للمرة الأولى والأخيرة في حياتها – فشكرها الرجل، ولم يطلب سوى ثمن التذكرة التي يعود بها إلى أهله في إيطاليا! ولم يرها الرجل بعد ذلك، ولم يفكر في العودة إلى مصر، إلا يوم قرأ نعيها في الصحف!

***

في بداية سنة١٩٥٠.. التقت كاميليا في رومانس الإسكندرية، بمهراجا هندي!.. وكانت قصة ريتا هيوارث وعلي خان، حديث الناس في تلك الأيام.. وليس أسرع من التعارف بين رجل تتوسط عمامته قطعة ثمينة من الماس، وامرأة تعبد الماس!.. وعندما حان موعد سفره، اتفق معها على العودة في شهر أغسطس على أن يقوما برحلة إلى أوروبا!

قالت تحية كاريوكا لتلميذتها كاميليا:

– إنتي مش قد المهراجا ده!

– ليه؟.. هي ريتا هيوارث أحسن مني؟!

وسافر المهراجا إلى بلاده، وعادت كاميليا إلى القاهرة لتعمل في بعض الأفلام.. وفي الأسبوع الأخير من شهر أغسطس تعاقد معها حسين صدقي لتقوم بالدور الأول في فيلم معركة الحياة، بأجر قدره٤٠٠ جنيها، دفع لها مائة «عربونًا»، وسافرت كاميليا إلى الإسكندرية، وتلقت وهي هناك، خطابًا من المهراجا الهندي، يخبرها فيه بأنه سيكون في الطائرة

التي تقوم من نيودلهي وتصل إلى القاهرة في الساعة التاسعة من مساء يوم ٣١ أغسطس. وفي نفس الوقت جاءها عقد من بيروت، يعرض عليها فيه صاحب أحد المسارح، أن ترقص في مسرحه، على أن تتقاضى مائة وخمسين جنيهًا في الليلة الواحدة! وكان صاحب المسرح قد رآها وهي ترقص في أحد الأفلام المصرية.. ولم تستطع كاميليا أن ترفض هذا العرض السخي الذي لم يبذل لراقصة من قبل! فأرسلت إلى مدرب الرقص «إيزاك ديكسون» لتتلقى على يديه ألف باء الرقص، ثم أبرقت إلى صاحب المسرح بالموافقة!

***

كانت كاميليا قد أسرفت في كل شيء: المال والصحة والحب؛ فأصيبت فجأة بالتهاب رئوي، وأشار عليها أصدقاؤها بالسفر إلى سويسرا للاستشفاء؛ فجاءت إلى القاهرة، واعتذرت لحسين صدقي من عدم العمل، وردت إليه المبلغ.. ثم حجزت لنفسها مقعدًا في نفس الطائرة التي تقوم من نيودلهي وتصل إلى القاهرة في الساعة التاسعة!..

وقبل أن تركب كاميليا الطائرة، كانت تعلم أنها مرتبطة بثلاثة مواعيد غرامية في ثلاث عواصم!.. الموعد الأول في القاهرة مع المهراجا الهندي الذي ركب معها الطائرة.. والموعد الثاني في باريس مع التاجر المصري.. والموعد الثالث في لندن مع الممثل الإنجليزي مايكل وايلدنج!

وفي ليلة ٣١ أغسطس سنة١٩٥٠.. ارتدت كاميليا أفخر ما عندها من ثياب، وتحلت بأثمن مجوهراتها..كانت تبدو كالعروس، التي ستقضي شهر العسل في أوروبا وتحركت الطائرة «نجمة ماربلاند»، وجلست كاميليا بجوار المهراجا الهندي الذي سيجعل منها ريتا هيوارث رقم (٢). لقد كانت أمنيتها في هذه الرحلة أن تتحدث عنها صحف العالم، كما سبق أن تحدثت عن ريتا هيوارث وعلي خان!

وفي نفس الليلة.. حملت أسلاك التليفون والبرق.. نبأ الطائرة التي قامت من مطار فاروق في منتصف الليل، وكانت على موعد مع القدر في الصحراء فهبطت في موعدها تمامًا، ولكن بعد أن تحولت بما فيها من قلوب تنبض بالحياة إلى رماد!.. ولم يعرف رجال البوليس جثة كاميليا، من بين عشرات الجثث المحترقة المشوهة، إلا من القطع الماسية الملتهبة التي تناثرت حولها في الرمال!.

تحية كاريوكا

الباحثة عن زوج!

«وصلت في يوم من الأيام إلى أقصى ما تصل إليه راقصة في مصر، ولكن مطامعها لم تقف عند حد؛ فاشترت «الجواز» اليهودي، ليكون جواز سفر إلى هوليوود! وثارت عليها الجماهير، فلم تعبأ، ولم تيأس، ولم تتراجع، واستطاعت أن تستبدل بسخرية الجماهير، إعجابًا وتصفيقًا..»!!

***

وعادت تحية كاريوكا ورشدي أباظة من تشييع جنازة كاميليا، وكل منهما يواسي الآخر!.. فأخذ رشدي يكفكف دموعها، وتحية كاريوكا تضعف دائمًا أمام الأحداث، فما من نبأ مؤلم يجيئها عن صديقة لها أو زميلة، إلا فزعت لهوله، وكانت أولى الباكيات، وأغزرهن دموعًا، وأعلاهن صوتًا! فهي تكره الأفراح وتتجنبها، بنفس القدر، الذي تحن به إلى المآتم والجنازات! وتحية كريمة، متلاف، مثقوبة اليد.. لا تكاد النقود تستقر في يدها، حتى تبعثرها هنا وهناك!

وهي حاضرة البديهة، سريعة الرد.. تنسى الإساءة بسرعة.. ولا تترك في قلبها أثرًا لحقد أو ضغينة.. طموح إلى حد بعيد.. وصلت في يوم من الأيام إلى أقصى ما تصل إليه راقصة مصرية، من حيث الشهرة والمال وكل شيء، ولكن مطامعها لم تقف عند حد؛ ففي الوقت الذي أسندت إليها فيه الأدوار الأولى، وتقدمت كبار الممثلين والممثلات، كانت تفكر في بطولة فيلم أمريكي!

ولو أن هناك سيدة أخرى غير تحية كاريوكا هي التي مرت بها هذه التجارب القاسية، لتحطمت وأصبحت في زوايا النسيان.. ولكن تحية استطاعت أن تهدئ الجماهير الثائرة ضدها، وأن تواجه العاصفة بأعصاب من حديد!.. كانت بعد عودتها من أمريكا تظهر على المسرح فيتلقاها المتفرجون بالسخرية والصفير؛ فلا تغضب، ولا تيأس، ولا تتراجع، وإنما تستمر في عملها دون أن تلتفت إلى أحد، وإن هي إلا دقائق معدودة حتى تنقلب سخرية الجماهير إلى إعجاب وتصفيق حاد! وفي خلال سنة واحدة كانت تحية كاريوكا قد استعادت مكانتها الأولى في المجتمع، نفس المكانة التي كانت تتمتع بها قبل رحيلها إلى أمريكا!

***

كانت تحية كاريوكا في حاجة إلى من يواسيها، ولم يكن أمامها – عقب وفاة كاميليا –إنسان يشاطرها الحزن على صديقتها، سوى رشدي أباظة.. ودعته إلى البيت.. وشقة تحية كاريوكا بالزمالك، أشبه ما يكون بفيللا مستقلة، تتكون من دورين، وهي الراقصة الوحيدة التي يضم بيتها

«مكتبة» تحتوي على أقدم وأحدث الكتب، وتحية تقرأ لشوقي وطه حسين والمازني وتوفيق الحكيم، وهي الراقصة الوحيدة أيضًا التي تطالع الصحف بانتظام، لتقف على آخر الأنباء العالمية والمحلية!

وفي تلك الليلة الحزينة، جلس رشدي أباظة يستمع إلى قصة بدوية أبو العلا النيداني الشهيرة بتحية كاريوكا!.. كان أبوها رجلًا مزواجًا، حتى لقد قيل عنه أنه يتزوج من الزوجة الثانية، وهو يشيع جنازة الأولى! كان رجلًا بدويًا يقود مركبه الشراعي الذي ينقل فيه البضائع بين سواحل البحر الأحمر، وله في كل ميناء زوجة، ومن كل زوجة طفل أو طفلة! ولكن معظم زوجاته كن من مدينة الإسماعيلية، لأنه كان يميل إلى المصريات؛ فتزوج – في الإسماعيلية – من سبع نساء!.. ومات وعلى ذمته أربع زوجات!

إن هذا الرجل هو الحاج علي أبو العلا النيداني، وهو حجازي الأصل، ولد في نجد، وطاف بموانئ البحر الأحمر، ثم استقر به المقام في مدينة الإسماعيلية، بجوار زوجاته اللائي كان يجمعهن في بيت واحد، ووضع لهن الدستور الذي يقضي بأن تتولى كل زوجة شئون البيت يومًا وليلة!

وكان يعاقب الزوجة التي تشتبك مع زميلة لها بالطلاق، ويتزوج من غيرها في الحال! فأشاع الإرهاب في جو البيت، ولم تعد واحدة من زوجاته تطمئن على مستقبلها ومستقبل طفلها أو طفلتها، فلما مات سار

ابنه الأكبر على نفس السياسة التي رسمها أبوه، وبالغ في معاملة زوجات أبيه وإخوته وأخواته بقسوة، لينفرد هو وأمه بما تبقى من التركة.. وهربت زوجات أبيه بأولادهن، ومنهن من تركت طفلتها ونجت بنفسها!

إن هذه السيدة هي والدة الطفلة «بدوية علي أبو العلا» التي مات أبوها وهي في الخامسة من عمرها، وتركها لأخيها الأكبر يسومها العذاب ثماني سنوات، وعندما كبرت والتحقت «بالكتاب»كانت تعود كل يوم وفي يدها «قرش صاغ» فإذا سألها أخوها من أين لك هذا؟.. قالت إنها عثرت عليه في الطريق!!

وأراد الرجل أن يتحقق من هذه «الأكذوبة»؛ فذهب معها في اليوم التالي إلى المكان الذي اعتادت أن تجد فيه القرش، ولكنه لم يجد شيئًا! فرمقها بنظرة ساخرة ثم عاد بها إلى البيت، وقيدها بالحبال، وأخذ يلهب ظهرها بالسوط ليلًا ونهارًا! ومنعها من الذهاب إلى «الكتاب»، واحتقرها دون أفراد البيت جميعًا؛ فكان يلقى إليها بما يفيض من الطعام، وهكذا عاشت الفتاة بين إخوتها وأخواتها كالقطة البائسة.

وفي فجر أحد الأيام استيقظت «بدوية» على صوت بائعة اللبن، وهي توقظها وتفك قيودها ثم تدعوها للهرب، وقالت البائعة التي أشفقت عليها: "أسرعي بلا جلبة أو ضوضاء إلى المحطة.. واسألي عن القطار الذاهب الى المنزلة. إن أمك تنتظرك هناك!"

وأسرعت الفتاة إلى محطة السكة الحديد، وركبت أول قطار صادفها، وتحرك القطار، واستسلمت الفتاة للنوم العميق. وحضر كمساري القطار، وسألها عن التذكرة، فبكت وقالت إنها لا تملك مليمًا واحدًا، وكانت تبدو صادقة.. والشهامة لا تظهر إلا بين صفوف الدرجة الثالثة، فجمع لها الركاب ثمن التذكرة، وسألها الكمساري عن وجهتها فقالت:

– المنزلة.

– ولكن هذا القطار سيذهب إلى مصر!.

– زي بعضه!

وأعطاها الكمساري ما تبقى من ثمن التذكرة، وكانت قطعة فضية من ذات القرشين! وفي إحدى المحطات، اشترت «سندويتش» بقرش صاغ، وأعطت القرش الثاني بقشيشًا للبائع!. لقد كانت سعيدة لأن هذا أول يوم تتنسم فيه نسيم الحرية! وفي القطار تذكرت اسم «سعاد محاسن». إن هذا الاسم ليس غريبًا عنها؛ فقد كانت هذه السيدة تنزل ضيفة على أبيها ولم تنقطع زيارتها إلا بعد وفاته.. وفي محطة القاهرة، سألت بدوية عن صالة سعاد محاسن فقيل لها أنها في شارع عماد الدين!. وعلى باب الصالة، التقت الفتاة بأحد الموسيقيين، وسألته عن سعاد محاسن، فقال إنها في الإسكندرية!

– ومتى تعود؟

– لن تعود قبل شهرين!

فدارت الدنيا في رأسها، وجلست تبكي سوء حظها، وفي هذه اللحظة مرت جانيت حبيب، السيدة التي حمتها في الليلة الأولى من ذئاب شارع عماد الدين! وفي الصباح أعطتها ثمن التذكرة إلى الإسكندرية، وعنوان سعاد محاسن!

***

..وبعد شهر من إقامتها في الإسكندرية، قالت بدوية لسعاد محاسن:

– إني لا أحب أن أعيش عالة عليك؟.

– وماذا تطلبين إذن؟

– أريد أن أعمل!

وبعد إلحاح قبلت سعاد محاسن أن تظهرها مع المجموعة، واختارت لنفسها هذا الاسم «تحية» بدون لقب، قالت تحية كاريوكا.. وهي تروي قصة الكأس الأولى والرجل الأول:

إن أعصاب الراقصات من حرير، وحياتهن على كف القدر، فقد تطرد الراقصة من عملها لأتفه الأسباب، وقد يحدث أن ينادي عمدة من زبائن الصالة إحدى الفتيات، لمشاطرته الكؤوس، فتعتذر الفتاة أو تتردد في القبول أو تعبس في وجهه دون قصد؛ فيكون مصيرها من صاحبة الصالة أن تلقي بها في عرض الطريق! وعندما تركت فرقة بديعة مصابني، والتحقت بـ «البيجو بالاس» اشترطوا علي أن «أفتح» للزبائن كسائر الفتيات؛ فقبلت العمل، بعد أن أفهمني المدير أن الجرسون سيقدم لي الكؤوس التي أطلبها مليئة بالشاي بدلًا من الويسكي! واقترحت إحدى زميلاتي أن أطلب «سيدر» بدلًا من الخمر.. وفي الليلة الأولى دعاني عمدة من الأرياف لأشاركه في الشراب، ونادى الجرسون الذي جاء يلهث، ثم وقف ينتظر أكثر من ثلاث دقائق، حتى لاحظ علي الاضطراب، فقد خانتني الذاكرة ونسيت كلمة «سيدر» التي ظللت أحفظها وأرددها طول النهار! فقلت للجرسون: "هات واحد كازوزة!"؛ فامتعض العمدة، ونظر إلي باحتقار، ثم التفت إلى الجرسون وقال: "إبعت لي حكمت فهمي!" فقمت إلى مائدة أخرى، ورآني أحد الصحفيين وأنا أبكي، فجلس بجواري وسألني:

– تشربي إيه؟

– نسيت.. نسيت اسمها!

– سيدر؟

ونادى الجرسون، فقلت له: "هات سيدر"! وكانت هذه هي الكأس الأولى، وفي نهاية السهرة أوصلني إلى البنسيون بالموتوسيكل؛ فجلست وراءه في المقعد الخلفي، وأخفيت وجهي في ظهره لأتقي قسوة البرد، وتكررت هذه الدعوة المتواضعة حوالي شهر!..

وفي إحدى الليالي تعرفت بالرجل الذي علمني فن الحياة!.. علمني الإنجليزية والفرنسية والإتيكيت والذوق في اختيار ملابسي، وكان يحثني على القراءة والاطلاع حتى بدأت أرى الحياة في صورة أخرى تختلف اختلافًا كبيرًا عن الصورة التي كنت أراها من قبل! لقد كنت قبل ذلك، ألبس الفستان، وأمشي في الطريق كالببغاء!. ودعاني مرة لمشاهدة فيلم راقص يقوم ببطولته فريد استير وجنجر روجرز التي رقصت لأول مرة في هذا الفيلم رقصة الكاريوكا!.

وأبديت رغبتي في أن أتعلم هذه الرقصة الحديثة، فأرسل إلى الشركة صاحبة الفيلم لتبعث إليه بالنوتة الموسيقية برقصة الكاريوكا.. ووصلت النوتة، فقدمتها لمعلم رقص ألماني ليدربني عليها في نظير مائة وخمسين قرشًا... أما البذلة فلم تكلفني أكثر من جنيهين!. ومن اليوم الأول الذي رقصت فيه هذه الرقصة، أطلقت علي الصحف والمجلات اسم: "تحية كاريوكا"!!.

وبدأت تحية كاريوكا تظهر في المجتمع المصري، واختلطت بالأوساط الراقية، وجاءها عقد من تركيا بمائة جنيه في الشهر؛ فسافرت

في الحال، ورقصت أمام أتاتورك الذي أهداها في نهاية الحفلة سوارين من الذهب المرصع بالماس، وفي هذه الرحلة زارت هنغاريا والنمسا وإيطاليا، وفي كازبلانكا دعاها أحد المخرجين الأمريكيين لتقوم بدور البطولة في فيلم قصير لحساب شركة براموتت، وعرض هذا الفيلم بدار سينما متروبول في بداية سنة ١٩٣٨..

وفي سنة ١٩٤٣ اشتركت تحية كاريوكا مع آن شريدان وفيفيان لي وبوب هوب وجاك بني وغيرهم من كبار الممثلين والممثلات الذين جاءوا إلى الشرق الأوسط ليشتركوا في حفلات الترفيه عن جيوش الحلفاء!.. فسافرت تحية في هذا الموكب إلى الهند والسودان وأديس أبابا والصحراء الغربية، وفي هذه الأثناء عرفت ضابطًا أمريكيًا برتبة ميجر، اسمه جلبرت ليفي!.

كانت فكرة السفر إلى أمريكا والعمل في هوليوود تنمو في رأسها يومًا بعد يوم، وعندما اعتزمت الرحيل سافرت وحدها – لا مع الميجر ليفي – كما قيل، وهناك قابلت وكيل أعمالها الذي قدمها إلى المخرج والممثل الكبير أورسون ويلز – زوج ريتا هيوارث السابق – فعرض عليها دور أميرة هندية في مسرحية «٧٥ يومًا حول العالم»، ولكن وكيل أعمالها رفض هذا العرض!.

وفي هوليوود عرضت عليها بعض الشركات أدوارًا صغيرة في الأفلام، فرفضت، على أمل أن يعود ليفي فيهيئ لها فرصة الظهور كبطلة

في فيلم كبير! فلما وصل ليفي إلى أمريكا، اتصل بها ووعدها بأن يساعدها على بلوغ هذه الأمنية التي تداعب خيالها، بشرط أن تتزوجه! فوافقت بعد أن اشترطت عليه هي الأخرى أن يشهر إسلامه، وتولى صياغة العقد شيخ اسمه مصطفى... وشهد على زواجهما اثنان من السوريين المسلمين.. ومرت الأيام بطيئة متكاسلة، وانتظرت أن يمهد لها الطريق إلى بطولة الفيلم الكبير المزعوم، ولكنه فشل! وأحست تحية بمرارة الخيبة؛ فصارحته برغبتها في الطلاق، وانفصلا، وهكذا عادت من بلاد السينما بخفي حنين!.. ونزلت تحية كاريوكا في المطار وهي لا تملك مليمًا واحدًا، ولكنها كانت حريصة على أن تبدو أمام الناس، بنفس المظهر الذي اعتادت أن تظهر به، فاستأجرت شقة مفروشة بخمسين جنيهًا في الشهر!

وفي ذلك الوقت راجت الإشاعات بأن الشعوب العربية ستقاطع الأفلام التي تظهر فيها تحية كاريوكا، وتخلى عنها المعجبون، وعجزت تحية عن سداد ما تراكم عليها من ديون! وانتقلت من هذه الشقة إلى غرفة بفندق شبرد! وفي كل يوم كانت تزداد ديونها حتى بلغت الفاتورة التي طالبتها بها شركة الفنادق ٢٥٠٠جنيها!. ولكنها لم تيأس، واستطاعت أن تقف على قدميها وتتحدى الزمن، حتى جاءها عقد من ستوديو مصر، لتقوم بالدور الأول في فيلم البيت الكبير، وقبضت خمسمائة جنيها عربونًا دفعتها لشركة الفنادق، وتعهدت بأن ترقص بما تبقى عليها من مبالغ؛ فكانت ترقص كل ليلة نصف ساعة، في نظير أن تخصم شركة الفنادق من ديونها مبلغ ثلاثين جنيهًا!

إن «بدوية علي أبو العلا» التي عاشت في الإسماعيلية بين إخوتها وأخواتها من أبيها، كالقطة البائسة، هي نفسها تحية كاريوكا التي تطوعت في جمعية الهلال الأحمر عندما بدأت الحرب العالمية الثانية، وفي إحدى الغارات الشديدة على مدينة الإسماعيلية كانت بين المتطوعات، وشهدت بعينيها القنبلة التي سقطت على بيت أبيها فأحالته أنقاضًا. وانكفأت تحية كاريوكا على إحدى الجثث، وأخذت تبكي بحرقة، لقد كانت جثة أخيها الأكبر الذي كان يلقي إليها ببقايا الطعام!

إن في حياة تحية كاريوكا سبعة رجال، تمامًا كما كان لأبيها سبع نساء، وهؤلاء الرجال، اختارتهم تحية كاريوكا من الشخصيات البارزة في المجتمع المصري، ولعل الفتاة التي عاشت حينًا من الزمن بلا لقب، كانت تبحث عن اللقب، ولكن القدر كان يخونها في اللحظة الأخيرة، وهكذا بدأ الصراع بينها وبين القدر للحصول على الزوج الذي يحمل لقبًا..

استمع رشدي أباظة إلى هذه القصة، ثم كفكف دموعها للمرة الثانية، وعرض عليها الزواج، فوافقت وسلمته على الفور، مفتاح سيارتها!.. إن الرجل الذي يستطيع أن يحتفظ بمفتاح سيارة تحية كاريوكا في جيبه، هو الذي يستطيع أن يحتفظ بمفتاح قلبها أيضًا!..

سامية جمال

الجارية التي رقصت حافية في دوفيل؟

«كانت حتى سن العشرين، لا تقرأ ولا تكتب، ولا تحفظ من اللغة العربية، سوى الحروف التي يتكون منها اسمها!.. أما اليوم؛ فهي تتحدث بثلاث لغات: الإنجليزية والفرنسية والإيطالية»!!

في سنة ١٩١٧ رقصت شفيقة القبطية في باريس، بحذاء من الذهب المرصع بالماس!.. وفي سنة ١٩٥٠ رقصت سامية جمال «حافية» في دوفيل!..

وسامية جمال اسمها الحقيقي «السيدة زينب»، وهي ابنة شيخ معمم اسمه الشيخ خليل إبراهيم، كان متزوجًا من اثنتين: أمها وسيدة أخرى، وتوفيت أمها وعمرها ثماني سنوات، وعاشت الطفلة اليتيمة خمس سنوات مع زوجة أبيها، ذاقت فيها ألوانًا مختلفة من الذل والهوان؛ فكانت ترغمها على غسل الأواني ومسح البلاط! فلا تكاد تنتهي من هذا كله، حتى تنهال عليها بالشتائم، لأنها تأخرت في شراء

الخضر واللحم، وبعد أن تشتري حاجات البيت، تبعث بها إلى إحدى جاراتها لتتولى مساعدتها أيضًا في غسل الأواني ومسح البلاط!

ولم تستطع الطفلة، وقد أصبح عمرها ١٤ سنة، أن تصبر على هذا الذل؛ ففي ساعة مبكرة من صباح أحد الأيام – سنة ١٩٣٨ – هربت السيدة زينب من الواسطى إلى القاهرة ونزلت ضيفة على شقيقتها الكبرى «فاطمة النبوية».. وكانت شقيقتها في ذلك الوقت متزوجة من موظف بإحدى مصالح الحكومة كما أنها تشتغل حائكة ملابس للسيدات؛ فأكرمتها شقيقتها في بادئ الأمر، ومرت أيام، ثم طردت الخادمة من البيت، وقالت السيدة لزينب: أن مدة الضيافة قد انتهت، وعليها الآن أن تتولى شئون البيت!

وكان لأختها طفل عمره ستة شهور، وليس أشق على الفتاة الهاربة من شيء أن تجده في انتظارها وفوقه غسل ملابس الطفل الرضيع!

كان البيت الذي تسكن فيه شقيقتها في حارة ضيقة بحي القربية، وكانت «السيدة زينب» تقضي أوقات فراغها في النافذة! تستمع إلى راديو المقهى البلدي حينًا، وتطل على المارة في الطريق أحيانًا، إلى أن يعود ابن الجيران من عمله ليجلس في النافذة، ويغني ويعزف على العود أغنية فريد الأطرش التي غناها لأول مرة في الإذاعة «بأحب من غير أمل»!

كان هذا الشاب الإيراني موظفًا في شركة بيع المصنوعات المصرية، وحاولت الفتاة أن تلفت نظره إليها أكثر من مرة، ولكنها فشلت!... وكانت تتعمد لقاءه على السلم لتحييه، فيرد تحيتها بوجه صارم... وفي أحد الأيام رأت والدته وهي تصعد إلى السطح لتنشر الثياب؛ فتبعتها وعرضت عليها مساعدتها! وفي يوم أحد ذهبت إليها، وعرضت عليها للمرة الثانية خدماتها؛ فشكرتها الأم، ثم أغلقت وراءها الباب بشدة!

كانت والدة الشاب قد فطنت إلى أن الفتاة لم تعرض خدماتها لوجه الله، وإنما لمعاكسة ابنها فقط! فأرسلت إلى أبيها في الواسطى خطابًا تشكو فيه من سوء خلقها؛ فجاء الشيخ مهرولًا إلى مصر ودخل على ابنته فوجدها وحيدة في الشقة، ولم يجد أختها الكبرى، فأدخلها في غرفة النوم ثم قيدها بحبل في عمود السرير النحاسي، وتناول «المقص» من فوق «ماكينة الخياطة».. وقص شعرها الطويل، ثم أخذ يجدله أمام عينيها، وصنع منه سوطًا متينًا! وانهال عليها ضربًا حتى فقدت الوعي!

وعاد أبوها إلى البلدة، وبقيت الفتاة شهورًا في البيت لا تخرج حتى لا ترى بنات الحارة المصيبة التي حلت بها!.. فقد كانت تباهي زميلاتها بشعرها، الذي يبلغ طوله مترًا كاملًا، وعندما بدأ شعرها ينمو، استعانت بمنديل حريري – إيشارب – تغطي به رأسها، كلما أرغموها

على شراء الحاجات من السوق! فقلدتها بنات الحارة، وأصبح «الإيشارب» هو الموضة الجديدة لبنات الحي!

كانت هذه «العلقة» سببًا في تمرد الفتاة على الأوضاع والتقاليد؛ ففي إحدى المرات أرسلتها أختها لتشتري شيئًا من السوق، فأخذت النقود وذهبت بها إلى سينما أوليمبيا، وابتاعت تذكرة في الدرجة الثالثة!.. وكانت هذه أول مرة تغيب فيها «السيدة زينب» عن البيت ساعتين كاملتين!.. فثار زوج شقيقتها وضربها «علقة» لا تقل عن علقة أبيها!

وأقبل العيد، ورأت السيدة زينب جميع زميلاتها من بنات الحي، وهن يذهبن إلى أختها بالأقمشة الجديدة لتفصيلها بمناسبة العيد؛ فطلبت من أختها فستانًا، ولكن الأخت اعتذرت بأنها لا تمتلك ثمن الفستان!.. وكانت الفتاة تعلم أن شقيقتها تكذب عليها!.. لأنها رأتها قبل ذلك، وهي تخفي خمسة جنيهات في قطن الكنبة! وفي ليلة العيد تسللت في الظلام، وبحثت عن النقود التي تخفيها شقيقتها، ثم أخفتها في صدرها، وخرجت من البيت هاربة!

لم تكن تعلم إلى أين تذهب، ولكنها كانت تعتقد أنه لم يعد لها مكان في هذا البيت؛ فذهبت إلى إحدى صديقاتها في نفس الحارة، واختفت عندها أيام العيد الثلاثة. وانقلب كل من في البيت يبحثون عنها، فلم يعثروا لها على أثر.

ولما هدأت العاصفة بعض الشيء، وفتر البحث عنها، انتقلت إلى بيت صديقة أخرى في حي آخر، يبعد عن هذا الحي بأربع محطات ترام!.. وفي أحد الأيام تعرفت بموظف في إحدى الوزارات، وسألها عن أمانيها فقالت:

– أريد أن أرقص!

وذهب بها إلى بديعة مصابني، قبل أن تفتتح موسمها الشتوي بكازينو أوبرا سنة ١٩٤٠، ورأتها بديعة وأعجبت بها، فسألها الصديق:

– ما رأيك في هذه الفتاة؟

فألقت بديعة مصابني عليها نظرة فاحصة، ثم قالت:

– لها مستقبل!

– تاخديها عندك؟

فقالت بديعة على الفور:

– يا ريت!!

وسألتها بديعة عن اسمها، فقالت السيدة زينب:

– اسمي سوسو!

ولكن اسم «سوسو» لم يعجب بديعة، وأخذت تفكر لها في الاسم الجديد الذي تقدمها به للناس!.. وقالت بديعة للفتاة:

– سأناديك بسامية!

– سامية إيه؟

وفكرت بديعة قليلًا، ثم نظرت إلى الصديق الذي قدمها إليها وضحكت، ثم قالت:

– سامية جمال!

وهكذا دخلت سامية جمال من باب «الكومبارس» في كازينو أوبرا، وانضمت إلى راقصات الصف الثاني بمرتب ثلاثة جنيهات في الشهر، وبعد شهرين منحتها بديعة علاوة ثلاثة جنيهات أخرى!

كانت بطلة الفرقة في ذلك الوقت تحية كاريوكا، وبديعة لا تعطي مرتبًا لبطلات فرقتها من حكمت فهمي إلى أفرانس إلى ببا عز الدين إلى حورية محمد إلى تحية كاريوكا، أكثر من ثلاثين جنيهًا في الشهر!

وبعد ثلاثة شهور، طلبت السيدة زينب الشهيرة بسامية جمال، من مدرس الرقص «إيزاك ديسكون» أن يعلمها «رقصة» في نظير مبلغ خمسة جنيهات، تدفعها على أقساط بواقع خمسين قرشًا في أول كل

شهر! وتبرعت لها بديعة ببذلة رقص قديمة دفعت سامية في نظير إصلاحها جنيهًا!

وكانت بديعة كلما رأتها جالسة في غرف الممثلين والممثلات تقول لها:

– إنزلي اتفرجي على تحية وهي بترقص... دي فرصة علشان تستفيدي!

وفي أحد الأيام كانت تجلس في أثناء البروفة، بجوار الملحن أحمد شريف، وكان أحمد شريف يقلب في صفحات إحدى المجلات، فلمحت صورة في المجلة فسألته:

– صورة مين دي؟

وكان صاحب الصورة يقف بالمصادفة خلفها، فأجاب بصوت مسموع:

– صورتي أنا!

والتفتت سامية وراءها، فوجدت نفسها وجهًا لوجه أمام فريد الأطرش! فاضطربت، وسألها بضعة أسئلة، لم تستطع الإجابة عنها، فطلب لها زجاجة كازوزة وانصرف.. وفي اليوم التالي اتصلت به بالتليفون وحاولت أن تعتذر عن اضطرابها أمس، فقال إنه مشغول بالعمل في فيلم انتصار الشباب، وأقفل فريد الأطرش السكة في وجه سامية جمال!

ولكنها أخذت تتصل به يوميًا، وفي كل مرة يعتذر بسبب شواغله في الفيلم، فقالت إنها لم تزر في حياتها أي ستوديو، فهل يسمح لها بالزيارة مرة واحدة؟.. فوافق فريد الأطرش... وفي الأستوديو تفقد المخرج أحمد بدرخان إحدى الفتيات الكومبارس فلم يجدها، فالتفت إلى مساعده كامل مدكور وقال:

– خذ هذه الفتاة بدلًا منها!

وأشار المخرج إلى سامية جمال، فأخذها المساعد إلى غرفة الماكياج... وعندما أخرج بدرخان فيلم «على مسرح الحياة» رشحها لدور قصير، تقاضت عنه خمسة جنيهات!

وفي كازينو أوبرا، بكت سامية جمال أمام بديعة مصابني أكثر من ربع ساعة، لكي تسمح لها بالظهور في رقصة وحدها!.. وفي المساء جاء دورها في الرقص... ورفع الستار، وظهرت سامية على المسرح، وما كادت ترى المتفرجين وهم يحدقون فيها ويصفقون، حتى سقطت على الأرض، وأنزل الستار، وأسعفها أستاذها إيزاك ديكسون بكأس كونياك، وأعلنوا عنها للمرة الثانية، وقبل أن يرفع الستار طلبت سامية جمال كأسًا أخرى!.. وفي هذه المرة رقصت، واستعاد الجمهور رقصتها مرتين!

لقد اعتادت الراقصات المحترفات أن يبعن ثيابهن القديمة للراقصات الناشئات، وكانت سامية جمال تسمع أن فلانة اشترت «فساتين» من فلانة بمبلغ كذا، فذهبت إلى بطلة الفرقة «تحية كاريوكا»

وعرضت عليها أن تبيعها فستانًا أو فستانين بالتقسيط! فضحكت تحية وأعطتها موعدًا في بيتها، وقدمت إليها عدة فساتين؛ ففرحت سامية وقالت لتحية: إنها لا تستطيع أن تدفع ثمن هذه الفساتين دفعة واحدة! فقالت تحية: "هذه الفساتين هدية مني لك!"..

ومرضت بديعة فزارتها سامية، وقالت لها إنها تلميذة فاشلة!.. فإنها لا تطيق «الفتح» ولا تستطيع أن تعيش في هذا الجو الخانق، ووعدتها بديعة بزيادة مرتبها جنيهين، ثم أربعة جنيهات، ولكنها رفضت لأنها كانت قد تعاقدت مع أحد المتعهدين على العمل في كباريه بالسويس، بمرتب ٢٠ جنيهًا في الشهر! وعادت بعد شهر ونصف إلى الكيت كات، بنفس المرتب الذي كانت تعمل به في السويس! ثم التحقت بعد ذلك بمحل الدولز – في سنة ١٩٤٤ – وفي إحدى الليالي كان المحل مزدحمًا بالناس، وظهرت سامية جمال فصفقوا لها طويلًا وبدأت رقصتها، وفي أثناء دورانها تمزقت فردة حذائها اليمنى فجأة فلم ترتبك، وخلعت الفردة الثانية بهدوء وألقتها بعيدًا، ثم أتمت رقصتها وهي حافية القدمين! فقابل الجمهور هذه الحركة بعاصفة من التصفيق، ومنذ ذلك الوقت لم تظهر سامية جمال في رقصة على المسرح، إلا وهي حافية القدمين!.

إن أول فيلم قامت سامية جمال بالدور الأول فيه، هو فيلم «من فات قديمه» بأجر أربعين جنيهًا، وهو أول فيلم مصري، يستقبل الجمهور أبطاله ومخرجه بالبيض والطماطم!.. وأول مائة جنيه تقاضتها سامية جمال في حياتها، كانت من شركة أفلام عبد الوهاب في نظير

دورها في فيلم «الحب الأول»! وآخر أجر تقاضته هو ١٥٠٠ جنيها في نظير دورها في فيلم «تعال سلم»..

في سنة ١٩٥٠رقصت سامية جمال في دوفيل على أوركسترا يتكون من ١٦ عازفًا أجنبيا، ونشرت صورها في مكان بارز من جميع صحف العالم، وقبل أن تعود إلى مصر، دعيت لترقص في إحدى الحفلات الخيرية في إكس ليبان، وحضر رفعة النحاس باشا هذه الحفلة، وعلم أنها رفضت أن تتقاضى أجرًا، فلما ذهبت لتصافحه قال لها: "طولتي رقبتنا مرتين!"

وسامية جمال تمتلك مجوهرات تقدر بسبعة آلاف جنيها، وسيارة هادسون موديل ٤٩ ثمنها ١٤٥٠ جنيهًا، أما رصيدها في البنك الآن فهو مبلغ ٢٣٠٧ جنيهات. وهي تتفاءل من رقم ٧ وتتشاءم من نعيب البوم!.. وقد استأجرت شقة في حي الزمالك تتكون من أربع غرف بستة وعشرين جنيهًا في الشهر، وهي مفروشة بأثاث ثمنه ألفان وخمسمائة جنيها. وهذه الشقة تطل على حديقة مهملة، لا تخلو من البوم والغربان!

اختلفت شقيقتها «فاطمة النبوية» مع زوجها الموظف بإحدى مصالح الحكومة، منذ سبع سنوات، ولم تجد لها ملجأ سوى بيت سامية جمال الذي تقيم فيه الآن.. ولا تزال زوجة أبيها التي كانت تقيم في الواسطى تزورها، وتتقاضى منها مرتبًا شهريًا.. أما الطفل «ابن شقيقتها»

الذي كان عمره – في بداية هذه القصة – ستة شهور، فقد أصبح اليوم شابًا، وأدخلته سامية جمال المدرسة العسكرية الثانوية!!

هذه هي قصة «السيدة زينب».. الجارية التي رقصت «حافية» في دوفيل!!

دولت سليمان

راقصة مصر الرسمية!

«عاشت حائرة... ترقص لتعيش، وتعيش لترقص، وهي تحتفظ بثلاثة أشياء: الذكريات من برلين، والعواطف من باريس، وجواز السفر من القاهرة»!!

***

تنحدر دولت زهرة عباس سليمان من أب مصري نحاسي اللون، وأم المانية في لون الثلج؛ فجاء لونها أحمر! وعرفت في مسارح باريس بالراقصة الحمراء، وفي ألمانيا براقصة مصر الرسمية!

في غرفة سوداء، ليس فيها «بلاطة» واحدة سليمة، وليس فيها من الأثاث سوى قطعة من الحصير البالي وكرسي من الخيزران بثلاث أرجل، وحتى هذا الكرسي الوحيد لا يستطيع الوقوف، إلا إذا أستند إلى الحائط!.. في هذه الغرفة الحقيرة من المنزل رقم ٨ بعطفة المغربل بحي باب الشعرية، يعيش عباس سليمان عمر الشهير – في هذا الحي – بالأسطى عباس الألماني!

هكذا يعيش الرجل الذي تزوج أربع زوجات من أجمل نساء الدنيا: الأولى ألمانية، والثانية فرنسية، والثالثة نمساوية، والرابعة تركية!.. وعندما عاد إلى مصر كان قد ترك في برلين زوجة وطفلة هي دولت زهرة عباس سليمان، وترك في باريس زوجة وطفلًا اسمه حليم عباس سليمان، وترك في فيينا زوجة وطفلة هي إيلي عباس سليمان، وترك في أنقرة زوجة وطفلة اسمها فاطمة عباس سليمان!

في مارس سنة ١٩١٤، سافر إلى ألمانيا محمد سليمان عمر، وهو صاحب تياترو وسينما وسيرك في برلين، واصطحب معه أشقاءه الأربعة، فتولى الأول إدارة التياترو، وتولى الثاني إدارة السينما، وطاف الثالث مع السيرك، أما الرابع وهو عباس سليمان، فقد التحق بأحد مصانع الأحذية!

وقامت الحرب العالمية الأولى فتفرق الأشقاء الخمسة، فمنهم من اعتقل، ومنهم من عاد إلى مصر، ومنهم من توفي، وفي نهاية الحرب افتتح عباس سليمان «دكانًا» لبيع السجائر، وأعلن في الصحف عن حاجته إلى فتاة تجيد المحاسبة والبيع والابتسام؛ فجاءت إليه فتاة شقراء اسمها «آنا شتونف» ولم تمض سوى بضعة شهور حتى دخلت معه شريكة في مصنع كبير لإنتاج السيجار!.. وأصبحت «أنا» شريكته في الحياة والمصنع والحب!.. وفي ١٥ ديسمبر سنة ١٩١٩، أنجب منها طفلة جميلة، وذهب عباس سليمان ليسجل اسم المولودة في بلدية برلين.. وسأله الموظف المختص عن الاسم الذي اختاره للمولودة السعيدة فأجاب:

– زهرة!

– ما هذا؟

– اسم عربي... إنه اسم أمي في القاهرة!

– ولكن هذا الاسم أجنبي... ابحث عن اسم آخر!

– دولت؟

– هذا اسم جميل!

– إذن.. اكتب الاسم هكذا: دولت زهرة عباس سليمان!

وبعد سبعة عشر عامًا، تولى حزب النازي الحكم في ألمانيا، وأساءت الحكومة الجديدة معاملة الأجانب المقيمين هناك، فاضطر عباس سليمان أن يترك زوجته وابنته «دولت» في ألمانيا، ويهرب بجلده! وفي محطة برلين، تعلقت دولت سليمان بأبيها عباس، وتمرغت على قدميه تمسح حذاءه بدموعها، وتتوسل إليه أن يأخذها معه إلى الشرق! فلما يئست، قالت له: إنها لن تكون عالة عليه، ستعمل كل شيء، لتعيش من عرق جبينها! ولكنه رفض وصمم على الرحيل وحده، وهرب الرجل إلى تركيا، وعاد إلى حرفته الأولى – صانع أحذية – في الجيش التركي.

وقفلت الفتاة راجعة من محطة برلين إلى البيت باكية، حزينة على رحيل أبيها المصري الذي لم تفترق عنه لحظة.. لقد كانت تظن أن أباها أمير هارب من الشرق!

ولم تلبث أمها أن تزوجت، وبهذا أصبحت دولت وحيدة، فلجأت إلى ابنة عمها حميدة سليمان، مغنية الأوبرا في برلين، وهنا قالت لها حميدة:

–يجب أن تتعلمي شيئًا تعيشين منه!

والتحقت دولت بأحد معاهد الرقص، ولكنها لم تتم دروسها، فقد أحبت أستاذها الفرنسي، وكان أول من همس في أذنها بعبارات الحب.. والفرنسيون يجيدون الهمس في الآذان!. وفي أحد الأيام هربت معه إلى باريس، وهناك حاولت أن تبحث عن أخيها لأبيها، حليم عباس سليمان فلم تجده!

وفي سنة ١٩٣٩، اعتقل جميع الألمان المقيمين في فرنسا ومن بينهم دولت سليمان! وفي الوقت نفسه علم أبوها، وهو في تركيا أن شقيقه محمد سليمان قد توفي، وأنه ترك له نصيبًا من ثروته في مصر، فجاء إلى مصر، بعد أن رفضت زوجته الرابعة أن تأتي معه، وفي وزارة الخارجية علم أن هناك من استولى على نصيبه، بعد أن أثبت للوزارة، أن عباس سليمان قد توفي إلى رحمة الله.

ومرت الأيام بطيئة ثقيلة على الأسطى عباس الألماني، ولم يفكر

يومًا في ولده وابنتيه، بقدر ما كان يسرح بفكره في ابنته الكبرى دولت، التي سماها «زهرة» باسم أمه! وكانت دولت هي الأخرى تفكر في أبيها، الأمير المصري الهارب من بلاد الحب والشعر والحريم!..

وفي الوقت الذي حصل فيه عباس سليمان على عمل يدر عليه عشرة قروش يوميًا، واستطاع أن يحصل على هذه الغرفة السوداء بخمسين قرشًا في الشهر، في هذا الوقت تلقى خطابًا من وزارة الداخلية، تخبره فيه بأنه توجد فتاة في باريس اسمها دولت زهرة عباس سليمان، تزعم أنها ابنته، وترغب في الحضور إلى مصر! وفي سنة ١٩٤٧ جاءت دولت زهرة عباس سليمان إلى مصر فجأة، وبحثت عن أبيها حتى وصلت إليه في الغرفة السوداء بالمنزل رقم ٨ بعطفة المغربل بباب الشعرية! وكان لقاؤهما عجيبًا!..

قال الأب:

– ما الذي أتى بك إلى هنا؟.. ولماذا لم تكتبي إلي لأستقبلك في الميناء؟

– وماذا كنت تفعل؟

– كنت أعد لك المكان المناسب الذي تنزلين فيه!

– لقد تعبت حتى حصلت على عنوانك هذا من الداخلية!

– والآن هيا بنا...

– إلى أين؟

– إلى بيت عمتك... شقيقتي!

وذهب معها إلى بيت شقيقته بباب الشعرية، وشقيقته هي الشيخة «ريحان» المشهورة في هذا الحي، بقراءة الفنجان والكشف عن الغيب! وترك الأسطى عباس الألماني ابنته «دولت» التي لا تعرف حرفًا واحدًا من العربية في بيت عمتها وانصرف. وفي موعد الغداء، قدموا لها قرطاسًا فيه «طعمية» وآخر فيه كمية من الباذنجان المخلل!.. وتناولت الفتاة الألمانية هذه الوجبة المتواضعة، ثم أصيبت بمغص! وبعد الظهر حضر أبوها، فقالت له بالألمانية:

– لماذا خلقني الله منك أنت؟

ولم يملك الأمير المصري الهارب من بلاد الحب والشعر والطعمية، سوى الاعتذار! ثم أخذها وانصرف، وفي الطريق أعطاها جنيهين!.. وعندئذ قالت له:

– إن لي صديقة في القاهرة، كنت قد تعرفت بها في باريس، وهذا هو عنوانها...

وأخرجت العنوان من حقيبة يدها، ثم أخرجت علبة السجائر، وقدمت له سيجارة، فاعتذر قائلًا:

– لقد امتنعت عن التدخين منذ ثلاث سنوات، ولو استطعت أن أستغني عن الطعام أيضًا

لفعلت!

وذهب الرجل معها إلى بيت هذه الصديقة، وتركها هناك! وبعد أيام سافرت دولت سليمان إلى الإسكندرية لتشتغل راقصة في الأوبرج بلو، وظلت هناك بضعة أشهر، ثم عادت إلى القاهرة، ولم تتصل بأبيها بعد ذلك، وعندما نفدت نقودها، اتصلت بصديقتها مرة أخرى!

وفي يوم **٢٣** مايو سنة **١٩٥٠**، قام الصاغ محمد نيازي بمهاجمة أحد المنازل المشبوهة، فضبطها في بيت هذه الصديقة، وفي التحقيق أنكرت التهمة، وسئلت عن جنسيتها فقالت أنها مصرية من أب مصري وأم ألمانية، وقدمت جواز سفر يحمل رقم – **٦٧٢٣٣** – وعندما سئلت عن أبيها، قالت أنها لا تعرف شيئًا عنه! وأفرجت عنها النيابة بكفالة خمسة جنيهات!

وخرجت دولت زهرة عباس سليمان الشهيرة براقصة مصر الرسمية من سجن مكتب الآداب لتبحث عن عمل، واستطاعت بعد مجهود شاق

أن تشتغل في الحلمية بالاس، وهناك ظلت ثلاثة أشهر، ثم سافرت إلى إنجلترا هربًا من الجنحة رقم ٣٥٠٨!

وفي لندن رقصت دولت سليمان عارية، أمام قصر بكنجهام، ونشرت صورتها وهي عارية في مكان بارز من الصفحات الأولى في جميع أنحاء العالم! وعند عودتها إلى ألمانيا، قامت أزمات بين قنصل مصر العام في فرانكفورت، وبين حكومة ألمانيا بسبب دولت زهرة عباس سليمان الشهيرة براقصة مصر الرسمية!

وفي الغرفة السوداء من البيت رقم ٨ بعطفة المغربل بحي باب الشعرية، يضرب الأسطى عباس الألماني كفًا بكف.. ويقول:

–لو كان لي بيت محترم في بلدي، ما تشردت هذه الفتاة المسكينة! لقد كانت تعيش في وطنها مصر..كالطير الأخرس!!..

الفهرس